اخبار عليّة بنت المهدى

نسبها وأمها

نَسبُها إلى العبّاس قد تقدّم فى ذِكر نَسب أخيها إبراهيم بن المهـدى . وأُمّها أُمّ ولد ، مُغنّية يقال لها : مَـكْنونة . كانت من جوارى المَرْوانيّـة المغنية .

تعقيب لابن واصل

قلت : وليست المَروانيـة ، من آل مَروان بن الحـكم ، هى زَوجة الحُسين ابن عبد الله بن عُبيد الله بن العباس[1] .

شىء عن أمها

وكانت مكنونة أحسنَ جارية بالمدينة وجهاً . وكانت رَسْحاء[2] ، وكان من يمازحها يَعبث بها فيَصيح : طَسْت ! طَسْت ![3] وكانت حسنةَ الصدر والبَطن ، تُوضح بهما ، ونقول : ولـكنّ هـذا ! فاشتُريت للمَهدىّ فى حياة أبيـه المنصور بمائة ألف درهم . فغَلبت عليه ، حتى كانت الخَيزران أُم الهادى والرّشيد تقول : ما مَلك أَمةً أغلظَ علىّ منها . واُستتر أمرُها عن المنصور حتى مات .

من صفة عليـة

فولدتْ له عُليّـة بنت المهدى ، مِن أَجمل النـاس وأَظرفهم ، تقول الشـعر الجيّد ، وتَصوغ فيه الألحان الحسنة . وكان فيها عيب ، كان فى جَبينها فَضلُ سَعة حتى تَسمج . فاتّخذت العصائب المكلّلة بالجوهر لتستُر بها جبينها . فأَحدثتْ والله شيئاً لم يُحدث النِّساء أَبدع منه ولا أحسن .

من دينها وأدبهـا

وذُكر أنها كانت حسنةَ الدِّين، لا تُغنّى ولا تَشرب النبيذ إلا إذا كانت مُعتزلة الصلاة ، فإذا طَهُرت أقبلتْ على الصـلاة ، وقَرأت القرآن ، وقرأت الـكتب . فلا تَلَذّ بشىء غير قول[4] الشِّعر فى الأحيان ، إلّا أن يَدْعُوَها الخليفةُ إلى شىء

---

(١) ظاهر القول أنه من مقول ابن واصل ، وهو من كلام أبى الفرج ، وقد ورد فى الأغانى .

(٢) الرسحاء : القليلة لحم العجز والفخذين .

(٣) أى إنها كالطست استواء .

(٤) فى التجريد : « قراءة » .

فلا تقدر على مُخالفته . وكانت تقول : ما حَرَّم الله شيئاً إلا وقد جَعل فيما حَلّل منه عِوَضاً ، فبأىّ شىء يحتجُّ عاصيه والمُنتهك لحُرُماته ! وكانت تقول : لا غَفَر الله لى فاحشةً ارتكبتُها قطُّ ، ولا أقول فى شِعرى إلّا عبثاً .

لابن الربيع فيها وفى أخيها

وكان عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع يقول :

ما اجتمع فى الإسلام أَخٌ وأُخت أحسن غناءً من إبراهيم المهدى وأُخته عُلَيَّة ، وكانت تُقدَّم عليه .

مى و طل والرشيد

وذُكر أنّ عُلية بنت المَهدىّ كانت تُحِبُّ أن تُراسل بالأشعار من تَختصّه . فاختصّت خادماً يقال له : طَلّ ، من خَدم الرَّشيد ، فكانت تُراسله بالشِّعر . فلم تَره أيّاماً . فمَشَت على مِيزاب وحدَّثته ، ثم قالت فى ذلك :

قد كان ما كُلِّفْتُه زمناً ... يا طَلُّ من وَجْدِى بكم يَكْفِى
حتى أتيتُكَ زائراً عَجِلاً ... أمشى على حَتَفٍ إلى حَتَفِ

فحلف عليها أخوها الرّشيدُ ألّا تُكلِّم « طَلّا » ولا تُسميه باسمه . فضَمِنت له ذلك . فاستمع عليها يوماً وهى تدرُس آخر سورة البقرة ، حتى بلغت إلى قوله عز وجل : (فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ) وأرادت أن تقول « فطل » فقالت : فالذى نهانا عنه أميرُ المؤمنين . فدَخل فقبّل رأسها وقال : قد وهبتُ لك طَلّاً ، ولا أمنعك من شىء تُريدينه .

من شعرها فى طل

ولعُليّة فى « طَل » هذا شعر ، وصَحَّفت اسمه فى أوّل بيتٍ ، وذلك لمّا حُجب عنها :

أيا سَرْوَةَ[1] البُستان طال تشوُّقى ... فهل لِى إلى ظِلٍّ لديك مَقِيلُ
متى يَلتقى مَن ليس يُقضَى خُروجه ... وليس لمن يَهْوَى إليه[2] سَبِيل

(١) السرو : شجر قويم الساق حسن الهيئة .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « دخول » مكان « سبيل » .

عَسى الله أن نَرتاح من كُربةٍ لنا فيَلْقى اُغْتباطاً خُلَّةٌ وخَليـــل

ولها فيه أيضاً ، وصَحَّفت اسمه فى ثالث بيت :

سَـلِّم على ذاك الغزالِ الأَغيدِ الحَسنِ الدَّلالِ
سَـلِّم عليـه وقُل له يا غُلَّ ألبابِ الرِّجال
خَلَّيت جِسْمى ضاحياً وسكنتَ فى ظِلِّ الحِجال(١)
وبلغتَ منِّى غايةً لم أَدْرِ فيها ما اُحتيالى

وذُكِر أنّ عُلية كانت تقول الشعر فى خادم لها يقال : له « رشأ » وتُكنّى عنه فى شعرها فيه ، وكَنَتْ عنه بزينب : هى وخادمها رشأ

وَجـد الفؤادُ بزَينبَا وَجداً شـديداً مُتْعِبَا
أصبحتُ من كَلفٍ بها أُدْعَى شَقِيًّا(٢) مُنْصَبا
ولقد كَنيتُ عن اُسمها عَمـداً لـكى لا تَغْضَبا
وجعلتُ زينب سُترةً وكتمتُ أَمراً مُعْجِبا
قالت وقد عَزَّ الوِصـا لُ ولم أَجِدْ لى مَذْهبا
والله لا نِلْتَ المُنَى دَّة أو تنـالَ الكَوكبا

قيل :

ولما عُلم أنها تَـكْنِى عن « رشأ » بزينب ، قالت :

القلبُ مُشـتاقٌ إلى رَيْبِ يارَبِّ ما هـذا من العَيْبِ
قد تَيَّمتْ قلبى فلم أَسـتطع إلّا البُـكا يا عالِمَ الغَيْب
خبأتُ فى شعرى سِرِّى(٣) الذى أردتُه كالحَبْء فى الجَيْب

فصحّفت اسمه فى « ريب » فى البيت الأول .

(١) الحجال : جمع حجلة ، وهى ستر العروس فى جوف البيت .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « سقيما » . (٣) فى غير التجريد : « اسم » .

هجاؤها جارية لها سعت بينها وبين رشأ

وقيل : وشت جارية يقال لها : « طُغْيان » بعُلية إلى « رشأ » وحكمت عنها ما لم تَقُل . فقالت عُلية تهجوها :

لطُغيانَ خُفٌّ مذ ثلاثين حِجّةً ... جديدٌ فما يَبلى ولا يتخرّقُ
وكيف بِلَى خُفٍّ هو الدهرَ كُلَّه ... على قدَمَيها فى السماء[1] مُعلّقُ
فما خَرقتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرباً ... وأمّا سَراويلاتها فتُمزّقُ

ولها فى رشأ وقد ترك النبيذ

وحلف « رشأ » ألّا يَشرب النبيذ . فقالت عُلية :

حَرَّمتُ شُرب الراح إذ عِفْتَها ... فلستُ فى شىءٍ أُعاصيكِ
فلو تَطوّعتِ لعوِّضتِنى ... منه رُضابَ الرِّيق من فيكِ
يا زينباً قد أرَّقَتْ مُقْلتى ... أَمْتعنى الله بحُبِّيكِ

غضب المعتصم عليها لشعر غنى به قيل إنه لها

وحكى محمد بن إسماعيل بن موسى بن الهادى قال :

كنّا عند المُعتصم ، وعنده عَلّويه ، ومخارق ، ومحمد بن الحارث ، وعَقيد ؛ فتغنّى عَقيد ، وكُنت أضربُ عليه :

نام عُذّالى ولم أَنَمِ ... واشْتَفَى الواشُون من سَقَمِى
وإذا ما قلتُ بى ألَمٌ ... شَكَّ مَن أهواه فى أَلَمِى

فطَرِب المُعتصمُ وقال : لمن هذا الشعر والغناء ؟ فأمسكوا . فقُلت : لعُلَيّة . فأعرَض عنّى . فعرفتُ غَلطتى وأنّ القوم أمسكوا عَمداً . فقُطِع بى[2] . فتبيَّن حالى ، فقال : لا تُرَع يا محمد ، فإنّ نَصيبك منها مثلُ نَصيبنا .

المأمون فى لحن بينها وبين إسحاق

وحكى إسحاقُ بن إبراهيم الموصلىّ قال :

عملتُ لحناً فى أيام الرشيد ، وهو :

(١) فى غير التجريد : « فى الهواء » . (٢) أى أرتج عليه ولم يعرف وجه القول .

سَقْياً لأرضٍ إذا ما نِمْتُ نَبَّهنى بعــد الهُدوِّ بها قَرْعُ النَّواقيسِ
كأنّ سَوْسَنها فى كُلِّ شــارقةٍ على المَيــادين أذنابُ الطَّواويس

قال : فأعجبنى ، وعملتُ على أن أُبا كر به الرشــيدَ . فلَقِينى فى طريقى خادمٌ لعُليّــة بنت المهــدىّ . فقال : مولاتى تأمرك بدُخول الدِّهليز لتَسْمع مِن بعض جواريها غناءً أخذتْه عن أبيك وشكّت فيــه الآن . فدخلتُ معه إلى حُجرة قد أُفردت لى كأنها كانت مُعدَّة ، فجلستُ ، وقُدِّم لى طَعامٌ وشراب ، فنِلْتُ منهما حاجتى . ثم خَرج إلىّ الخادمُ فقال : تقول لك مولاتى : أنا أعلمُ أنّك قد غدوتَ إلى أمير المؤمنين بصوتٍ قد أعددتَه له مُحْــدَثٍ ، فأَسمعنيه ولك جائزة سنيّــة تتعجّلها ، ثم ما يأمر به لك بين يديك ، ولعــلَّه لا يأمر لك بشىء ، أو لا يَقع الصوتُ منــه بحيثُ توخَّيتَ ، فيذهبَ سَعْيُك باطلاً . فاندفعتُ فغنَّيتُها إياه ، ولم تزل تَستعيده . ثم أخرجتْ إلىّ عشرين ألفَ دِرهم ، وعشرين ثوباً ، وقالت : هذه جائزتُك . ولم تزل تَستعيده مراراً . ثم قالت : أسمعه الآن . فغنَّته غناءً ما خَرق سَمعى مثــلُه ، ثم قالت : كيف تَراه ؟ قلت : أرى والله ما لم أَرَ مثــلَه : قالت : يا فلانة ، أعيدى له مثلَ ما أخذ . فأَحضرت عشرين ألفاً أُخرى ، وعشرين ثوباً . فقالت : هــذا ثمنُه ، وأنا الآن داخلةٌ إلى أمير المؤمنين وأُخبره أنّه من صَنعتى ، وأُعطى الله عهــداً لئن نطقتَ أنّ لك فيه صنعةً لأقتلنّك ، هذا إن نجوتَ منــه إن عَلِم بمَصيرك إلىّ . فخرجتُ من عندها ووالله إنّى لــكالمُوقن[1] بما أكره من جائزتها ، أسفاً على الصوت . فما جَسَرْتُ بعد ذلك أن أتنغَّم به فى نفسى فضــلاً عن أن أُظهره ، حتى ماتت . فدخلتُ على المأمون فى أول مَجلس جلسه للهو بعدها ، فبدأتُ به فى أول ما غنَّيت . فتغيّر لونُ المأمون وقال : مِن أين لك ويلك هذا ؟ قلت : ولِىَ الأمان على الصِّــدق ؟ قال : ذلك لك . فحدَّثتُه الحديثَ . فقــال :

(١) فى التجريد : « لكالموقر بما » .

يا بغيض ! فما كان لك فى هذا من النَّفاسة حتى شَهَرْتَه وذكرتَ هذا منه ، مع ماقد أخذتَه من العِوَض ! وهَجَّنى فيــه هُجْنة وَدِدْتُ معها أنِّى لم أذكره . فآليتُ ألّا أُغنِّيه بعد هذا أبداً .

عودة الرشيد إلى أم جعفر بشعرها غنته فيه

وذُكر أنه أُهديت إلى الرَّشيد جاريةٌ فى غاية الجَمال والكمال ، فخَلا معها يوماً ، وأخرج كُلَّ قَينة فى داره ، فأصطبح . وكان مَن حَضر من جواريه للغِناء والخِدمة فى الشَّراب زُهاء ألفَى جارية ، فى أحسن زِىّ ، من كُل نوع من أنواع الثياب والجَوهر . واتصل الخَبرُ بأُمّ جَعفر زُبيدة . فغَلُظ عليها ذلك . فأرسلت إلى عُلَيّة بنت المهــدىّ تشكُو إليها . فأرسلت إليها عُلية : لا يَهُولَنّك هذا ، فوالله لَأَرُدّنه إليك ؛ وقد عزمتُ على أن أصنع شعراً وأصُوغ فيه لحناً وأطرحه على جوارىّ ، فلا يَبقى عنــدك جاريةٌ إلا بعثتِ بها إلىّ ؛ وأُلبسهنَّ ألوان الثّياب ليأخُذْن الصوتَ مع جوارىّ . ففعلتْ أُم جَعفر ما أمرتْها به عُلَيَّة . فلما جاء وقتُ صلاة العَصر لم يشعُر الرشيدُ إلّا وعُلية قد خرجتْ عليه من حُجرتها ، وأُم جعفر من حُجرتها ، معهما زُهاء ألفَىْ جارية من جواريهما وسائر جوارى القصر ، عليهنَّ غرائب اللِّباس ، وكُلّهن فى لحن واحد من صَنعة عُليّــة :

مُنفصــلٌ عنّى وما قلبىَ عنــــه مُنفصلْ
يا هاجرى[1] اليومَ لمن نويتَ بعدى أن تَصِلْ

فطَرب الرشيدُ وقام على رِجْليه حتى أستقبل أُمّ جعفر وأُختَه عُلية ، وهو على غاية السُّرور . وقال : لم أَرَ كاليوم قطُّ ! يا مسرور ، لا يَبقى فى بيت المال دِرْهم إلّا نَثرتَه . فكان مَبْلغ ما نثره يومئــذ ستةَ آلاف ألف درهم . وما سُمع بمثــل ذلك اليوم قَطُّ .

(١) فى بعض أصول الأغانى : « يا قاطعى » .

الرشيد و جاريتان لما سمعهما عنـد ابراهيم الموصلى ثم عندهـا

وحُكى أنّ الرشيدَ أشتاق إلى إبراهيم الموصلىّ يوماً ، فركب حماراً يقرُب من الأرض ، ثم أمر بعضَ خَدم الخاصّة بالسعى بين يديه . وخَرج من داره حتى دَخل على إبراهيم . فلما أحسّ به إبراهيمُ ، أستقبله وقبّل رجلَيْه . وجلس الرشيد ، فنَظر إلى مواضعَ قد كان فيها قومٌ قد مضَوْا ، ورأى عيداناً كثيرة . فقال : يإبراهيم ، ما هـذا ؟ فجعل يدافع . فقال : ويلك ! أُصدُقنى . فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، جاريتـان أطرح عليهما . قال : هاتهما . فأحضر جاريتين ظَريفتين — وكانت الجاريتان لعُليّة ، بعثتْ بهما ليَطرح عليهما — فقال الرشيد لإحداهما : غنِّى . فغنّت :

بُنِىَ الُحبُّ على الَجوْر فـــلو ... أنصف المعشوقُ فيـه لسَمُجْ
ليس يُستحسن فى وَصف[1] الهوى ... عاشقٌ يُحسن تأليفَ الُحجَج
لا تَعيـــبنْ مِن مُحبٍّ ذِلةً ... ذِلَّة العاشـــق مِفْتاحُ الفَرج
وقَليـل الُحب صِرْفاً خالصـاً ... لكَ خيرٌ من كَثيرٍ قد مُزِج

فأحسنت جداً . فقال : الرشـيد . يإبراهيم ، لمِن الشعر ؟ ما أملحـه ! ولمن اللحن ؟ ما أظرفه ! فقال : لا عِلْم لى . فسأل الجارية . فقالت : لستِّى . قال : ومَن سِتُّك ؟ قالت : عُلية أُخت أمير المؤمنين . قال : الشـعرُ واللحن ؟ قالت : نعم . ثم أَطرق ورفعَ رأسه إلى الأُخرى ، فقال : غنِّى . فغنّت :

تَحبَّب فإنّ الُحبّ داعيةُ الُحب ... وكم من بعيدِ الدار مُستوجبُ القُربِ
تَبصَّر فإنْ حُدِّثْتَ أنّ أخا هوًى ... نجا سـالماً فارجُ النَّجاة من الُحب
إذا لم يكُن فى الُحبّ سُخْطٌ ولا رِضًى ... فأين حلاواتُ الرّسائل والكُتْب

فسأل إبراهيمَ عن الغِناء والشعر . فقال : لا عِلْم لى يا أمير المؤمنين . فقـال

(١) فى بعض أصول الأغانى : « فى حكم » .

للجارية : لمن الشعرُ واللحن ؟ فقالت : لسيِّدى . فقال : ومَن سيِّدك؟ قالت : عُلية أُخت أمير المؤمنين . فوثب الرشيد وقال : يا إبراهيم ، احتفظ بالجاريتَيْن . ومضى فركب حِمَاره، وانصرف إلى عُليــة فقال : قد أحببتُ أنْ أشربَ عندك اليوم . فتقدمتْ فيما تُصلحه . وأخذا فى شأنهما . فلما كان آخر الوقت حَمل عليها بالنبيذ ، ثم أخذ العُود من حِجر جارية ودَفعه إليها . فأكبرت ذلك . فقال : وتُربة المَهدىّ لَتُغنِّين . قالت : وما أُغنى ؟ فقال : غَنِّى :

* بُنى الحُب على الجور فلو *

فعلمتْ أنه قد وقف على القصّة ، فغنَّته . فلما أتت عليه . قال : غنِّى :

* تَحبَّبْ فإن الحُبّ داعيةُ الحبّ *

فَلَجْلَجت ، ثم غنَّته . فقام وقبَّل رأسها وقال : يا سيدتى ، هذا عندك ولا أعلم! وتَمَّ يومَه عندها .

غنت الرشيد وكان معــه جعفر

وحَكى محمد بنُ جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرمك قال :

شهدتُ أبى جعفراً ، وأنا صغير ، يُحدِّث جدِّى يَحيى بن خالد فى بعض ما كان يُخبره به من خَلَواته مع هارون الرشيد . قال: يا أبتِ ، أَخذ بيدى أميرُ المؤمنين، ثم أَقبل بى على حُجرة يخترقهـــا ، حتى انتهى إلى حجرة مُغلقة ، ففتحها بيديه ، ودَخلنا جميعاً ، وأَغلقها من داخلٍ بيده ، ثم صِرْنا إلى رِواق ففتحه ، وفى صَدره مجلسٌ مُغْلَق، فقعد على باب المجلس . فنقر الرشيدُ البابَ بيده نقرات . فسَمِعْنا حِسًّا . ثم أَعاد النَّقر . فسمعْنا صــوتَ عُود . ثم أعاد النقر ثالثةً . فغنَّت جاريةٌ ، ماظننتُ والله أن الله خَلق مثلَها فى حُسن الغناء وجَودة الضَّرب . فقال أمير المؤمنين لها — بعد أن غنَّت أصواتاً — : غنِّى صوتِى . فغنَّت صوته ، وهو :

ومُخَنَّثٍ شَهِدَ الزِّفافَ وقبــله غنَّى الجوارىَ حاسراً ومُنقَّبا

لَبِسَ الدَّلالَ وقام يَنقُرُ دُفَّه نَقْراً أقرَّ به العُيونَ وأَطْربا
إنّ النِّساء رأينه فعَشِقْنه فشكون شِدَّة ما بهنّ فأَكذبا

فطربتُ والله طرباً هممتُ معه أن أنطح برأسي الحائط . ثم قال لها : غنِّي :

* طال تكذيبي وتصديقي *

فغنّت :

طال تكذيبي وتَصْديقي لم أجِدْ عهداً لمَخْلوقِ
إنّ ناساً في الهوى غَدَروا حَسَّنوا(١) نَقْضَ المَواثيق

فَرقص الرشيدُ ورقصتُ معه . ثم قال : أُمض بنا فإني أخشى أن يبدُوَ منّا ماهو أكثرُ من هذا . فمضينا ، فلما صِرْنا إلى الدِّهليز قال ، وهو قابض على يدي : أعرفتَ هذه المرأة ؟ قلتُ : لا ، يا أمير المؤمنين . قال : فإني أعلم أنّك ستسأل عَنها ولا تكتُم ذلك ، وأنا أُخبرك بها : هذه عُلية بنت المهدى ! ووالله لئن لفظتَ بين يدَي أحدٍ وبَلغني لأقتُلنّك . قال : فسمعتُ جدِّي يقول له : فقد والله لفظتَ به ، ووالله ليقتُلنّك ! فاصنعْ ما أنت صانع .

تعقيب لابن واصل في نكبة الرشيد للبرامكة

قلت : إنه بلغ من شدّة تقريب الرَّشيد لجعفر ـ على ما حكاه الطبرى ـ أن الرشيد كانت له أختٌ أُخرى يقال لها العبّاسة بنت المهدىّ، وكان الرَّشيد لا يَصبر عنها ولا عن جعفر ، فرأى تَزْويجها لجعفر حتى يَحلَّ له النظرُ إليها عندما يَجتمعان عنده . فزوَّجه إياها سرًّا . وكانا يَشربان معه . فشَربا يوماً معه وثَمِلا، وقام الرشيدُ لحاجة له ، وكانت قد أحبَّت جعفراً وأحبَّها ، فوَاقعها فحَبِلت منه . فلما وَضعت خافت الرشيدَ . فسيَّرت الولدَ إلى مكة و بالغت في كِتمان أمره . فنُمِى خبرُه إلى الرشيد . فحجّ سنةَ سبع وثمانين ومائة ، فوقف على القضيّة تحقيقاً . فكان ذلك سبب إيقاعه بجعفر و نَكبته البرامكة .

(١) في بعض أصول الأغانى : « أحدثوا » .

وقد قيل فى سبب نَكبته لهم أُمورٌ كثيرة غير هذا ، والله أعلم .

تأخرها فى الحج وغضب الرشيد عليها

وذُكر أنّ عُلية بنت المهدى حَجَّت فى أيام الرشيد . فلما انصرفت من الحج أقامت بطِيزَنَاباذ (١) أياماً ، فانتهى ذلك إلى الرشيد ، فغضب . فقالت عُلية :

أىُّ ذنبٍ أذنبتُه أىُّ ذنب ... أىُّ ذنبٍ لولا رجائى لربِّى
بمُقامى بطِيزَنَاباذَ يوماً ... بعده ليلةٌ على غير شُرب
ثم باكرتُها عُقاراً شَمُولاً ... تَفْتِنُ النّاسِكَ الحليمَ وتُصْبِى
قَهوةً قَرْقفاً تراها جَهُولاً ... ذاتَ حِلْمٍ فرّاجةً كلَّ كَرب

وصنعت فيه لحناً . فلما جاءت وسَمع الشعرَ واللّحن رضى عنها .

حنينها إلى العراق ورد الرشيد لها إليه

وذُكر أنّ الرّشيد لمّا خَرج إلى الرّى أخذ أُخته عُلية معه ، فلما صار بالمَرْج (٢) عملتْ شِعراً وصاغت فيه لحناً ، وهو :

ومُغترب بالمَرْج يَبكى لشَجْوه ... وقد غاب عنه المُسْعِدون على الحُبِّ
إذا ما أتاه الرَّكْبُ من نحو أرضهم ... تَنشَّق يَسْتَشفى برائحة القُرْب

فلما سمع الصوتَ علم أنّها اشتاقت إلى العِراق وأهلِها به ، فردّها .

غناؤها الرشيد فى يوم عيد فطر

وذُكر أنّ عُلية غنّت الرشيد فى يوم عِيد فطر :

طالتْ علىّ ليالى الصَّوم واتصلتْ ... حتى لقد خِلْتُها زادتْ على الأبَدِ
شوقاً إلى مجلسٍ يُزْهَى بصاحبه ... أُعيذه بجَلال الواحد الصَّمد

وذُكر أن عَريب غنّته للمُعتمد على الله . فأمر لها بثلاثين ألف درهم .

تركها الغناء لموت الرشيد وعودتها إليه

وذُكر أنه لما تُوفى الرَّشيدُ جَزِعت أُخته عليه جزعاً شديدا ، وتركت النَّبيذ

(١) موضع نزه بين الكوفة والقادسية .
(٢) هو مرج القلعة ، بينه وبين حلوان منزل إلى جهة همذان .

والغناء ، فلم يزل بها محمد الأمين حتى عادت فيهما[1] على كُره ، وقالت فيه شعراً وعملت فيه لحناً ، وهو :

أطَلْتِ عاذلتى لَوْمِى وتفْنيدى ... وأنتِ جاهلةٌ شوقى وتَسْهيدِى
لا تَشْرب الراحَ بين المُسمعات وزُرْ[2] ... ظَبْياً غريراً نقىَّ الخدِّ والجيد
قد رنَّحته شَمُولٌ فهو مُنْجدل ... يَحكى بوَجْنته ماء العَناقيد
قام الأمينُ فأغنى الناسَ كُلَّهمُ ... فما فقيرٌ على حالٍ بموْجود

شعرها إلى أختها لبانة

وذُكر أنها كتبتْ يوماً إلى بنت أخيها لُبانةَ بنت علىٍّ بن المَهدىّ :

وحدّثنى عن مجلس كنتِ زَيْنَه ... رسولٌ أمينٌ والنِّساء شُهودُ
فقلت له كُرَّ الحديث الذى مضى ... وذِكْرَكِ من بين[3] الحديث أريد

غنت هى وأخوها وزمر عليهما يعقوب

وحكت عَريب قالت :

أحسنُ يومٍ رأيتُه فى الدنيا وأطيبُه يومٌ اُجتمعتُ فيه مع إبراهيم بن المهدى ، عند أُخته عُلية ، وعندها أخوها يعقوب بن المهدى ، وكان أحذَق الناس بالزَّمر . فبدأت عُلية فغنَّت من صَنعتها ، وأخوها يعقوب يَزْمُر عليها :

* تحبَّب فإنّ الحُب داعية الحبِّ *

وغنّى إبراهيم بن المهدى وزَمر عليه أخوه يعقوب :

لم يُنْسنِيك سُرورٌ لا ولا حَزَنٌ ... وكيف لا كيفَ يُنْسَى وجْهُك الحَسَنُ
ولا خَلا منك قَلْبى لا ولا جَسدى ... كُلِّى بكُلِّك مَشْغولٌ ومُرْتَهن
يا واحدَ الحُسن[4] مالى منك مُذ كَلِفَت ... نَفسى بحُبِّكِ إلا الهَمُّ والحَزَن
نورٌ تولَّدَ من شَمس ومِن قَمرٍ ... حتّى تكامل فيه الرُّوح والبَدن

(١) فى بعض أصول الأغانى : « منهما » .
(٢) فى التجريد : « وذر » .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « ذاك » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « يا واحد الحب » .

فما سمعتُ مثلَ ما سمعتُه منهما قط ، وأعلم أنِّى لا أسمع مثله أبدا .

مولدها ووفاتها وذُكر أن عُلية بنت المهدى ولدت سنة ستّين ومائة ، وتُوفيت سنة عشر ومائتين ، فى خلافة المأمون ، وعُمرها خمسون سنة . وكانت زوجة لموسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس ، وصلى عليها المأمون ، وكان سَبب وفاتها أن المأمونَ ضمّها إليه وجعل يُقبّل رأسها ، وكان وجهها مُغطًّى ، فشرقت من ذلك وسعلت ، ثم حُمَّت بعقب هذا أياماً يسيرة وماتت .

أخبار أبي عيسى بن الرشيد

اسمه وأمه

اسمه أحمد . وقيل : صالح . وأمه بَربريّه .

من خلقه وخلقه

وكان مِن أحسن الناس وجهاً ومُجالسةً وعِشرة ، وأحدّهم نادرة ، وأشدّهم عَبثاً . وكان يقول شعراً طيّباً من مثله .

وكان يُقال : انتهى جمالُ وَلَد الخِلافة إلى أولاد الرشيد ، ومِن أولاد الرشيد إلى محمد الأمين ، وأبي عيسى . وكان أبو عيسى إذا عَزم على الرُّكوب جَلس له الناسُ حتى يروه ، أكثر ممّا كانوا يَجلسون للخُلفاء ، وكان حسنَ الغِناء .

هو وأبوه في المأمون

وذُكر أن الرشيد قال لابنه أبي عيسى ، وهو صبيّ : ليت جمالَك لعبد الله المأمون ! فقال : على أنّ حظَّه منك لي ! فعَجِب من جوابه على صِباه ، وضَمّه إليه وقبّله .

هو والمأمون وشهر الصيام

وذُكر أنه شَهد المأمونُ ليلةً وهم يتراءَوْنَ هلالَ رمضان ، وأبو عيسى أخوه معه مُستلقٍ على قفاه ، فرأى المأمونُ ومن معه الهلالَ وجعلوا يَدْعون ، فقال أبو عيسى قولاً أُنكر عليه في ذلك المعنى ، كأنه كان مُتسخِّطاً لُورود الشهر ، فما صام بعده .

وقيل إن أبا عيسى لما قال :

دَهانيَ شهرُ الصوم لا كان من شَهر ... ولا صُمتُ شهراً بعده آخرَ الدّهرِ
فلو كان يُعْدِيني الإمامُ بقُدرةٍ ... على الشَّهر لاستعديتُ جهدي على الشَّهر

ناله بعَقِب هذا القول صَرْعٌ ، فكان يُصْرَع في اليوم مرّاتٍ إلى أن مات ، ولم يبلغ شهراً مثله .

عبثه مع طاهر فى حضرة المأمون

وذُكر أن أبا عيسى بن الرشيد، وطاهرَ بن الحُسين، كانا يَتغدَّيان مع المأمون، فأخذ أبو عيسى هِنْدباءة[1] فغمسها فى الخَلّ وضرب بها عينَ طاهرٍ الصحيحةَ، فغضِب طاهرٌ وشَقّ ذلك عليه وقال: يا أمير المُؤمنين، إحدى عَيْنىّ ذاهبةٌ، والأُخرى على يدى عَدْل، يُفعل بى هذا بين يديك! فقال المأمون: يا أبا الطيِّب، إنه والله ليَعبث بى أكثر من هذا العَبَث.

هو والمأمون ويعقوب بن المهدى

وذُكر أنّ المأمون بينا كان يخطُب يومَ الجُمعة على المِنبر بالرُّصافة، وأخوه أبو عيسى تلقاءَ وجهه فى المَقصورة، إذ أقبل يعقوب بن المهدىّ، وكان أفْسى الناسِ، قد عُرف بذلك، فلما أقبل وضع أبو عيسى كُمه على أنفه، وفَهم المأمون ما أراد، فكاد يَضحك. فلما انصرف بَعث إلى أبى عيسى فأحضره، وقال: والله لَهممتُ أن أبطحك وأضرِبَك مائةَ دِرّة، ويلك! أردتَ أن تَفضَحنى بين أيدى الناس يومَ الجُمعة وأنا على المِنبر! إياكَ أن تعود لمثل هذا!

يعقوب بن المهدى ودابة له

قيل: وكان يعقوب بن المهدىّ لا يقدر أن يُمسك الفُساء إذا جاءه، فاتخذت له دابةٌ مُثلَّثةً وطيَّبتها وتنوّقت فيها. فلما وضعتْها تحته فَسا. فقال: هذه ويلك ليست بطيِّبة! فقالت الدابةُ: فديتُك، قد كانت طيّبة وهى مثلّثة، فمُذ ربَّعتها فسدت.

من حماقة يعقوب

وكان يعقوب هذا محمَّقاً، كان يخطُر بباله الشىء فيشتهيه، فيُثبته فى إحصاء خزائنه. فضجّ خازنهُ من ذلك، فكان يُثبت الشىء ثم يُثبت تحته أنه ليس عنده، وإنما أثبته ليكون ذكرُه عنده إلى أن يَملكه. فوُجد فى دَفتر له فيه ثَبَتُ ثيابٍ: ثَبَتُ ما فى الخزانة من الثِّياب المثقَّلة الإسكندرانية الهاشميّة لا شىء، أستغفر الله! بلى عندنا منها زِرٌّ من جُبَّة[2] كانت للمهدىّ. الفُصوص الياقوت

(١) الهندباء: نبات كالخس عريض الورق.

(٢) هذه رواية التجريد. والزر: العروة. والذى فى غيره: «زرحية». وظاهر أن الصواب فيها: «زرجبة» كما فى التجريد.

الأحمر ، التى من حالها وقِصّتها كذا وكذا ، لا شىء . أستغفر الله ! بلى عندنا دُرْج[1] كان فيه للمهدىّ خاتَم هذه صِفتُه . فُحمِل هذا إلى المأمون ، فضَحِك لما قرأه حتى فَحص برجليه ، وقال : ما سمعتُ مثل هذا قطُّ !

من محبة المأمون له

وقيل : كان المأمون أشدَّ الناس حُبًّا لأبى عيسى أخيه ، وكان يُعدّه للخلافة بعده ويُذاكر أصحابه ذلك . وقال يوماً : إنه ليَسْهُل علىّ أمر الموت وفَقْدُ المُلك ، وما يَسْهل شىء منهما على أحد ، ذلك لمحبّتى أن يَلى أبو عيسى الأمر من بعدى ، لشدّة حُبِّى إياه .

موته

وحكى أن سبب موته أنه كان يُحب صيدَ الخنازير ، فوقع عن دابّته فلم يَسْلَم دِماغُه . فكان يتخبّط فى اليوم مراتٍ حتى مات .

تعزية المهلبى للمأمون فيه

وحكى محمد بن عبّاد المُهلّبى قال :

لما مات أبو عيسى بن الرشيد دخلتُ إلى المأمون وعمامتى علىّ ، فخلعت عمامتى ونبذتُها ورائى — والخُلفاء لا تُعزَّى فى العمائم — ودنوت . فقال لى : يا محمد ، حال القَدَر دون الوَطر . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كُلُّ مصيبةٍ أخطأتْك تهون ، فجعل الله الحُزن لك لا عليك .

حزن المأمون عليه

وذُكر أنّ أبا عيسى توفى سنة تسع ومائتين . وصلّى عليه أخوه المأمون ، ونزل فى قبره ، وامتنع من الطعام أياماً حتى خاف أن يضُرَّ ذلك به .

وحكى القاضى أحمد بن أبى دُوَاد قال :

دخلتُ على المأمون فى أول صُحبتى إياه ، وقد تُوفى أخوه أبو عيسى ، وكان له مُحبًّا ، وهو يبكى ويَمسح عينيه بمنديل ، فقعدتُ إلى جَنب عمرو بن مَسعدة وتمثّلتُ قول الشاعر :

---

(١) الدرج ، بالضم : سفيط صغير .

نَقصٌ من الدُّنيا وأسبابِهـا نَقصُ المنايا من بـنى هاشمِ

فلم يزل على تلك الحال ساعةً يبكى ، ثم مَسح عينيه وتمثّل :

سأبكيك ما فاضت دُموعى فإن تَغِضْ فحسْبُك منّى ما تُكِنّ[1] الجوانحُ
كأنْ لم يَمُت حَيٌّ سـواك[2] ولم تقُم على أحـدٍ إلّا عليـك النَّوائح

ثم التفت إلىّ فقال : هيه يا أحمد ! فتمثّلتُ قول عَبْدة بن الطَّبيب :

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصمٍ ورحمتُه ما شـاء أن يـترحّما
تحيّـةَ مَن أوليتَه منـك نعمةً إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سَـلَّما
وما كان قَيْسٌ هُلْـكه هُلْكَ واحدٍ ولـكنّه بُنيانُ قومٍ تهـدَّما

فبكى ساعةً ثم التفت إلى عمرو بن مَسعدة فقال : هيـه يا عمرو ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين :

بَـكَّوا حُذيفةَ لم تبـكوا مثلَه حتى تعودَ قبـائلٌ لم تُخْلَقِ

قال : فإذا عَريبٌ وجوارٍ معها يَسْمَعن ما يدور بيننا ، فقالت : أجعلوا لنا معكم فى القول نَصيباً . فقال المأمون : قُولى ، فُربّ صوابٍ منك كثير . فقالت :

[3]كذا فَلْيجلّ الخَطْبُ ولْيَفْدح الأمرُ فليس لعَينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُـذْرُ
كأنّ بَنى العبّـاس[4] يوم وفاته نُجوم سمـاء خَرَّ مِن بينها البَدْرُ

فبكى وبكينا . ثم قال لها المأمون : نُوحى به . فناحت وردّ عليها الجوارى . فبكا المأمونُ حتى قلتُ : حانت[5] نفسه . وبكينا معه أحَرَّ بُكاء . ثم أمسكت .

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ما تجن » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « ولم تتح » مكان « ولم تقم » .
(٣) هذا الشعر لأبى تمام فى رثاء محمد بن حميد الطوسى . وكان مقتله فى حرب كانت بينه وبين أصحاب بابك الخرمى سنة ٢١٤ هـ . وقد ذكره أبو الفرج وأخذ عنه ابن واصل أن أبا عيسى مات سنة ٢٠٩ هـ .
(٤) فى ديوان أبى تمام : « كأن بنى نبهان » . (٥) فى بعض أصول الأغانى : « خرجت » .

فقال لها المأمون : اُصنَعى فيه لحناً وغَنِّى فيه . فصنعتْ فيه لحناً على مَذهب النوح وغَنَّته إياه على العُود . فوالذى لا يُحْلَف بأعظم منه ، لقد بكَيْنا عليه غِناءً أكثر ممّا بكَيْنا عليه نَوْحاً .

أبو العتاهية يسلى المأمون عنه

وحكى عمرو بن مسعدة قال :

لمامات أبو عيسى بن الرشيد دخل عليه أبو العتاهية فقال: حَدِّثنى يا أبا إسحاق بحديث بعض المُلوك ممّن كان فى مثل حالنا وفارقَها . قال : يا أمير المؤمنين ، لَبس سليمانُ بن عبد الملك أفخر ثيابه ، ومَسَّ أطيب طيبه ، وركب أفره خَيله ، وتقدّم إلى جميع مَن معه أن يركب فى مِثْل زِيّه وأكمل سلاحه ، ونَظر فى مِرآته فأعجبتـه نفسُه وهَيئته وحُسنه ، فقال : أنا الملك الشـــــابّ ! ثم قال لجارية له : كيف تَرين ؟ فقالت :

أنت نِعْم المَتاعُ لو كنتَ تَبقى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسـانِ
أنت خِلْوٌ من العُيوب وممّا ... يكره الناسُ غيرَ أنّك فانى

فأعرض بوجهه ، فلم تَدُر عليه الجُمعـة إلا وهو فى قبره . قال : فبكى المأمون والناسُ ، فما رأيتُ أكثرَ باكياً من ذلك اليوم .

الشعر الذى فيـه الغنـاء

والشعرُ الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبارَ أبى عيسى بن الرشيد ، هو:

قام بقلبى وقَعـدْ ... ظبىٌ نَفَى عنّى الجَلَدْ
خَلَّفـنى مُـدَلَّهاً ... أَهيمُ فى كُل بَلَدْ
أَسْهرنى ثم رَقَد ... وما رَثَى لى من كَمَد
ظبىٌ إذا أزددتُ له ... تذلُّلاً تاه وصَـدّ
واعطَشَـا إلى فَمٍ ... يَمُجّ خمراً من بَرَد

شيء عنه

وكان أضرَب الناس بالعُود ، وأحسَنهم غناء . وله شعرٌ .

شعره فى خادم لصالح بن الرشيد

فحكى سليمانُ بن داود ، كاتب أبى جعفر ، قال : كنتُ جالساً مع عبد الله ابن مُوسى الهادى فمرّ به خادمٌ لصالح بن الرشيد ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمى « لا تسل » . فأعجبه حُسنه وحُسن منطقه . فقال لى : قُم بنا حتى نُسَرّ اليومَ بذكر هذا البدر . فقُمت معه ، ، فأنشدنى فى ذلك اليوم :

وشادنٍ مرّ بنا ... يجرح باللّحظ المُقَلْ
مَظلوم خَصْر ظالمٍ ... منه إذا يمشى الكَفَل
اعتدلت قامتُه ... واللحظُ منه ماعدَل
بدرٌ تراه أبدا ... طالعَ سَعْدٍ ما أفَل
سألتُه عن اسمه ... فقال لى اسمى « لا تسل »
وأطلعتْ فى وجنتيه ... وَردتان من خَجَل
فقلتُ ما أخطأ من ... سمّاك بل[1] نال الأمل
لا تسألن عن شادنٍ ... فاق جمالاً وكَمَل

وقال فيه أيضاً — وقيل إنه من هذه الأبيات :—

عَزّ الذى نَهوى وذَلّ ... صَبُّ الفُؤاد مُختَبَلْ
جَدّ[2] به الهجرُ وذا ... هجرُ إذا جَدّ[2] قَتل

(١) هذه رواية التجريد . وفى غيره : « قال المثل » مكان « نال الأمل » .
(٢) فى غير التجريد : « لج » فى الموضعين .

من شادنٍ مُنتطِقٍ فاق جمالاً وكَمَل
تناصف الحُسن به فلا تَسل عن «لا تَسل»

لبعض الشعراء فى جوده

وذُكر عن عبد الله بن موسى أنه كان جواداً كريما مُمدَّحا، وفيه يقول الشاعر:

أعبدَ الله أنت لنا أميرُ وأنت من الزَّمان لنا مُجيرُ
حكَيت أباك موسى فى العَطايا إمامُ الناس والملكُ الكبير

شعره الذى فيه الغناء

والشعر الذى لعبد الله فيه الغناء، وافتتح به أبو الفرج أخباره، هو:

تقاضاك دهرُك ما أسلفا وكَدّر عيشَك بعد الصَّفَا
فلا تَجزعنّ فإن الزمانَ رهينٌ بتَشْتيت ما ألَّفا
ولما رآك قليل[1] الهُموم كثير الهَوى ناعماً مُتْرَفا
ألحّ عليك برَوْعاته وأقبل يَرْميك مُستهدِفا

حديث موته

وذُكر أن عبد الله بن موسى الهادى كان مُعربِداً، وكان قد أعضل[2] المأمونَ مما يُعربد عليه إذا شرب معه، فأمر به أن يُحبس فى منزله فلا يخرجَ منه، وأقعد على بابه حرساً. ثم تذمَّم من ذلك، فأظهر له الرِّضا وصَرف الحرس عن بابه. ثم نادمه فعَرْبد عليه أيضاً، وكلَّمه بكلام أحفظه. وكان عبد الله مُغرماً بالصيد، فأمر المأمونُ خادماً من خواص خدمه يقال له: حسين، فسمَّه فى دُرَّاج وهو بموسَياباذ[3]. فدعا عبدُ الله بالعشاء، فأتاه حُسين بذلك الدُّراج، فأكله. فلما أحسّ بالسمّ ركب فى الليل وقال لأصحابه: هو آخر ما تَروْنى. وأكل معه من الدُّراج خادمان، فأما أحدهما فمات من وقته، وأما الآخر فبقى مدة ثم مات. ومات عبدُ الله بعد أيام.

(١) فى غير التجريد: «وما زال قلبك مأوى» مكان «ولما رآك قليل».
(٢) أى أعياه. والرواية فى بعض أصول الأغانى: «أحفظ المأمون».
(٣) موسيا باذ: قرية من نواحى همذان. وأخرى بالرى، منسوبة إلى موسى الهادى، وهذه الأخيرة هى المرادة. (ياقوت). والذى فى بعض أصول الأغانى: «بمرسى أباد». تحريف.

أخبار عبد الله بن محمد الأمين

اسمه — هو عبد الله بن محمد الأمين بن هارون الرشيد .

أم الأمين — وأم الأمين أمُّ جعفر زُبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور . واسمها أَمَة العزيز ، وزُبيدة لقبٌ غلب عليها . وكان جدُّها أبو جعفر المنصور يُرقّصها وهي صغيرة — وكانت سمينةً حسنةَ البدن — فيقول : يا زُبيدة ! يا زُبيدة ! فغلب عليها ذلك .

أم عبد الله وشيء عنه — وأم عبد الله أم ولد . وكان ظريفاً غزلاً ، يقول شعراً لَيِّناً ، ويَصنع في الغناء صنعةً صالحةً ، وكان يُنادم الواثق ، ثم نادم بعده سائر الخلفاء إلى المُعتمد . وله في المعتمد :

رأيتُ الهلالَ على وجهكا ... فما زلتُ أدعو إلهي لكا
فلا زلتَ تحيا وأحيا معاً ... وآمنني الله من فَقْدكا

من شعره — ومن شعره :

يامَن به كلُّ خَلْقٍ ... تراه صَبًّا مُتَيَّمْ
ومَن تجالَلَ تيهاً ... فما تراه يُكلِّمْ
لاشيءَ أعجبُ عندي ... ممّن يراك فيَسْلَمْ

شعره إلى أبي نهشل في جارية أراد شراءها — وذُكر أنه كان بين عبد الله بن محمد الأمين وبين أبي نَهْشل بن حُميد مودةٌ ، فاعترض عبدُ الله جاريةً مغنيةً لبعض نساء بني هاشم فأعطى بها مالاً عظيماً . فعرفت منه رغبةً فيها فزادت عليه في السَّوم ، فتَركها ليكسِرهم . فجاء أخٌ لأبي نَهشل فاشتراها وزاد . فَتتبَّعتْها نفسُ عبد الله ، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النُّزولَ عنها ، فسأله ذلك ، فوعده ودافعه ، فكتب عبدُ الله إلى أبي نَهشل :

يا بن حُميدٍ يا أبا نَهشلِ ... مِفتاحَ باب الحَدَث المُقفَل
يا أكرمَ النـاس وداداً وأر ... عاهم لحقٍّ ضائعٍ [1] مُغفَـل
أحسنتَ فى ودِّى وأجملتَ بل ... جُزْتَ فِعال المُحسِن المُجمِل
بيتُك فى ذى يَمَنٍ شـامخٌ ... تَقصُر عنه قُنَّتا [2] يذبُـل
خَلَفْت فينـا حاتماً ذا الندى ... وجُدْتَ جَوْدَ العارض المُسبِل
أىُّ أخٍ أنتَ لذى وَحْـدةٍ ... تركتَـه بالعِزِّ فى جَحْفَـل
نُجـومُ حظِّى منك مَسعودةٌ ... فيما أُرجِّى لَسْنَ بالأُفَّـل
فَصدِّقِ الظنَّ بمـا قُلتَـه ... وسَهِّـل الأمرَ به يَسْهُـل
لا تحرِمنِّى ولديك المُنَـى ... بالله صَيْدَ الرَّشـأ الأكحل
رُميتُ منـه بسِهام الهـوى ... وما دَرى بالرَّمْى [3] فى مَقتلى
أدْنيتنى بالوعـد فى صَيْـده ... إدناءَ عَطْشـانٍ من المَنْهل
ثم تنـاسيتَ وأسـلمتنى ... إلى مِطَالٍ مُوحشِ المَـنْزِل
تركتَـنى فى لُجّـةٍ عائماً ... لا أعرف المُدْبِرَ من مُقْبِـل
صَرِّح بأمرٍ واضحٍ [4] بيننـا ... لا خيرَ فى ذِى لَبَس [5] مُشْكل

فلم يزل أبو نَهْشل بأخيه حتى نَزل له عنها .

وقيـل :

بينـه وبين أبى نهشل حين أقام بضيعـة له

كانت لعبد الله بن محمد الأمين ضيعةٌ بالسَّواد تُعرف بالعَمْرِيّة ، فخرج إليها وأقام بها ثلاثاً [6] ، فكتب إليه أبو نَهشل :

سَقى الله بالعَمْرِيّة الغيثَ مـنزلاً ... حللتَ به يا مُؤنِسى وأمـيرِى
فأنت الذى لا يَخلُق الدهرَ ذكرُه ... وأنت أخِى حقًّا وأنت سُرورى

(١) فى غير التجريد : « مهمل » مكان « مغفل » .
(٢) يذبل : جبل بنجد .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « ما الرمى » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « بين » مكان « بيننا » .
(٥) اللبس ، بإسكان ثانيه ، وحرك للشعر .
(٦) فى غير التجريد : « أياما » .

فأجابه عبد الله :

لئن كنتُ بالعَمْرية اليومَ لاهياً ... فإنّ هواكم حيثُ كنتُ ضميرى
فلا تَحسبنِّى حيث كُنتُ[1] مُقصِّراً ... وكُنْ شافِعى مِن سُخْطكم ومُجيرى

شعره الذى فيه الغناء

والشعرُ الذى فيه الغناء ، وأفتتح به الفرج أخبار عبد الله بن محمد الأمين، هو:

ألا يا دَيْرَ حَنْظلةَ المُفدَّى ... لقـــد أورثتنى سَقَماً وكَدّا
أَزُفُّ من الفُرات إليك[2] زِقّاً ... وأجعل تحته الوَرق المُندَّى

شىء عن دير حنظلة

وهذا الدير هو بالجزيرة . وصاحبه هو حَنظلة بن أبى عَفراء ، أحد بنى حيَّة الطائيين ، رهط أبى زُبيد ، ورهط إياس بن قَبيصة . وكان حنظلة هذا قد تعبَّد فى الجاهلية وتفكّر فى أمر الآخرة ، فتنصّر و بنى هذا الديرَ فعُرف به . وهو القائل:

ومهما يكن رَيبُ الزمانِ فإننى ... أرى قَمرَ الليل المُعذَّب[3] كالفَتَى
يَهُلُّ صَغيراً ثم يعظُم ضَـــوءه ... وصُورته حتى إذا ما هو استوى
تقارب يَخْبو ضَـوءه وشُعاعُه ... و يَمْصَح[4] حتى يَستَسِرّ فلا يُرى
كذاك تمامُ[5] المرء ثم انتقاصه ... وتكرارُه فى دَهره بعد ما مَضى
نُصبِّح أهلَ الدار والدارُ زينةٌ ... ونأتى الجبالَ من ثِمارِيخها العُلا
فلا ذا غِنًى يُرجِئْن عن فَضل ماله ... و إن قال أَخِّرنى وخُذْ رِشوةً أبى
ولا عن فَقيرٍ يأتخرن لفقره ... فتنفعه الشَّكْوى إليهنّ إن شَكا

(١) فى غير التجريد : فى هواكم » مكان « حيث كنت » .
(٢) هذه رواية التجريد . وفى غيره :
« أزف من العقار إليك دنا »
(٣) هذه رواية التجريد ومعجم البلدان (دير حنظلة) . وفى غيرهما : « المغرب » .
(٤) يمصح : يذهب وينقطع .
(٥) فى غير التجريد : « كذلك زيد » .

أخبار علي بن الجهم

نسبه

هو علىّ بن الجَهم بن بَدْر بن الجَهْم بن مَسعود بن أُسيد بن أُذينة بن كَرّاز ابن كَعب بن مالك بن عُتبة [1] بن جابر بن الحارث بن عبد البيت بن الحارث بن سَامَة بن لُؤىّ بن غالب .

شيء عن سامة جده

هكذا يدَّعون . وقُريش تَدفعهم عن النَّسب وتُسمِّيهم : بنى ناجية ، يَنسبونهم إلى أُمهم ناجية ، وهى زوجة سامةَ بن لُؤى بن غالب . وكان سامة — فيما يقال — خَرج إلى ناحية البحرَيْن مُغاضِباً لأخيه كعب بن لُؤى فى مُماظَّةٍ [2] كانت بينهما ، فطأطأتْ ناقتُه رأسَها إلى الأرض لتأخذ شيئاً من العُشب بمِشْفرها ، فعَلق بمشفرها أفعى ، ثم عَطفته على قَتَبها فحكَّته به ، فدبّ الأفعى على القَتَب حتى نَهش ساقَ سامةَ فقَتله . فقال : أخوه يَرثيه :

عينُ جُودِى لسامةَ بن لُؤىٍّ ... عَلِقَتْ ساقَ سامةَ العَلّاقهْ
رُبَّ كأسٍ هَرَقْتَها ابنَ لُؤىٍّ ... حذرَ الموتِ لم تكن مُهْرَاقه

وقال مَن يَدْفع بنى سامة من نَسَّابِى قُريش : إنه كانت معه امرأتُه ناجية ، فلما مات تزوَّجت رجلاً من أهل البحرين ، فولدت منه الحارث . ومات أبوه وهو صغير ، فلما تَرعرع طَمِعت أُمه فى أن تُلْحِقه بقُريش ، فأَخبرته أنه ابن سامةَ ابن لُؤى . فَرحل من البحرَيْن إلى كَعب بن لُؤى ، وأخبره أنه ابن أخيه سامةَ ، فعَرف كعبٌ أُمَّه وظنّه صادقاً فى دعواه ، فقَبله ومكث عنده مُدَّةً ، حتى قدم مكةَ رَكْبٌ من أهل البَحْرَين ، فرأوا الحارثَ فسلَّموا عليه وحادثوه ساعةً ، فسألهم

(١) هذه رواية التجريد وابن خلكان . وفى غيرهما . «عيينة» .
(٢) المماظة : المخاصمة .

عنه كعب بن لُؤى ومن أين يعرفونه . فقالوا له : هـذا ابنُ رجلٍ من أهل بلدنا يقال له : فُلان ، وشَرحوا له خبَره . فنَفاه كعبٌ ونفَى أُمَّه . فرجعا إلى البَحْرَين وكانا هناك . وتزوَّج الحارثُ وأَعقب هذا العَقِب .

ورَووا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « عَمِّى سامةُ لم يُعْقِب » . وارتدّ بنو ناجية عن الإسلام بعد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . ولمّا وَلِى علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه الخلافةَ دعاهم إلى الإسلام ، فأَسلم بعضُهم وأقام الباقون على الردَّة ، فسَباهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه واسترقّهم ، فاشتراهم مَصْقلةُ ، وأدَّى ثُلث ثمنهم وأشهد بالباقى على نفسه ، ثم أَعتقهم وهَرب من تحت ليلته إلى مُعاوية ، وصاروا أحراراً ، ولَزمه الثمنُ . فهَدم علىٌّ رضى الله عنه دار مَصقلة بالكُوفة ، فلم يَدْخلها [1] مَصقلةُ حتى قُتل علىّ رضى الله عنه .

وأثبت الزُّبير بن بَكَّار نسَبهم فى قُريش . وَردَّ عليه أبو الفرج قولَه وقال : إنما فعل الزُّبير بن بكار ذلك لانحرافه عن علىّ رضى الله عنه وتعصُّبه عليه ، فأثبت نَسب هؤلاء لعَداوتهم عليًّا رضى الله عنه . والله أَعلم بحقيقة ذلك .

صلته بالمتوكل

وكان علىّ بن الجَهم شاعراً فَصيحاً مَطبوعاً . وخُصَّ بالمُتوَكل حتى صار من جُلسائه . ثم أَبغضه لأنّه كان كثيرَ السِّعاية إليه بنُدمائه والذِّكْر لهم بالقبيح عنده ، فإذا خلا به عَرَّفه أنهم يَعيبونه ويَثْلبونه ويتنقَّصونه ، فيَكشف عن ذلك فلا يجد له حقيقة ، فنَفاه بعد أن حَبسه مُدة .

شعره فى هجاء آل أبى طالب

وكان علىٌّ بن الجهم ينحو نحو مروان بن أبى حَفصة فى هِجاء آل أبى طالب وذَمِّهم والإغراء بهم ، وهو القائل :

ورافضةٍ تقول بشِعْب رَضْوى ... إمامٌ خاب ذلك من إمامِ
إمامِى [2] من له عشرون ألفاً ... من الأَتراك مُشْرَعةُ السِّهام

(١) أى الكوفة . (٢) فى غير التجريد : « إمام » .

هجاء البحترى له

وفيه يقول البُحْترىّ :

إذا ما حُصِّلتْ عُليا قُرَيش ... فلا فى العِير أنت ولا النَّفيرِ
(١)ولو أعطاك ربُّك ما تمنّى ... لزاد الخَلقَ فى عِظَمِ الأُيور
علامَ هَجَوْت مُجتهِداً عَليًّا ... بما لفَّقت من كَذِب وزُور
أما لك فى اُستِكَ الوَجْعاء شُغْلٌ ... يَكُفُّك عن أَذَى أهل القُبور

بين أبى العيناء وبينه

وذكر أن أبا العَيناء سمع علىَّ بن الجَهم يَطعن على علىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال له : أنا أدرى لِمَ تَطعن على علىّ أمير المؤمنين . فقال له : أتعنى قصّة بَيعه أهلى من مَصقلة بن هُبيرة ؟ قال : لا ! أنت أَوضعُ من ذلك، ولكن لكونه قَتل الفاعلَ فِعل قوم لُوط والمفعولَ به ، وأنت أَسفلُهما .

حبس المتوكل له والقصة فى ذلك

وذُكر أنه كتب صاحبُ الخَبر إلى المُتوكل : إن الحَسن بن عبد الملك ابن صالح اُحترق فمات . فقال علىُّ بن الجهم للمتوكل : قد بلغنى أنّ العاملَ قَتله ، وصانَع صاحبَ الخبر حتى كَتب بهذا — وكان يَسعى بالجُلساء إلى المتوكِّل — فأبغضه وأَمره بأن يَلْزم بيتَه . ثم بلغه أنه هَجاه فحَبسه . فقال فى الحَبس أشعاراً كثيرة حسنةً . وأحسنُ شعر قاله فى الحبس قصيدتُه التى أولها :

قالت حُبستَ فقلتُ ليس بضائرى ... حَبْسى وأىُّ مُهنَّدٍ لا يُغْمَدُ
أَوَما رأيتِ الليثَ يألف غِيلَه ... كِبْراً وأوباشُ السِّباع تَردَّد
والبدرُ يُدركه السِّرار(٢) فَتنْجلى ... أيّامُه وكأنّه مُتجدِّد
والشمسُ لولا أنّها مَحجوبةٌ ... عن ناظَرَيْك لَما أَضاء الفَرْقد
والغيثُ يَحصُره السَّحاب(٣) فمايُرى ... إلّا وَرِيقه يَروع ويَرْعُد

(١) الرواية فى ديوان البحترى :

ولو أعطاك ربك ما تمنى ... عليه لزاد فى غلظ الأيور

(٢) السرار ، بالفتح والكسر : آخر أيام الشهر .

(٣) فى غير التجريد : « الغمام » .

والزَّاعبيّة[١] لا يُقيم كُعوبَها ... إلّا الثِّقافُ وجَمرةٌ[٢] تتوقَّد
والنـــارُ فى أحجارها مَخبوءة ... لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأَزْنُد
والحَبْسُ ما لم تَغْشَه لِدَنِيَّةٍ ... شَنعاء نِعْمَ المنزلُ[٣] المُتورَّد
بيتٌ يُجدِّد للكرام كرامةً ... ويُزار فيه ولا يَزور ويُحْمَد
لولم يكُن فى الحَبْس إلّا أنه ... لا يَستذِلُّك بالحِجاب الأَعْبُد
كم من عَليلٍ قد تَخطَّاه الرَّدى ... فنجا ومات طبيبُه والعُوَّد
يا أحمدُ بنَ أبى دُوَاد إنما ... تُدْعى لكُلِّ عظيمة يا أحمد
أَبلغ أميرَ المُؤمنين فدُونه ... خَوْضُ الرَّدى ومخاوفٌ لا تَنفَد
أنتم بنو عَمِّ النبىِّ محمدٍ ... أولى بما شَرَع النبىُّ محمد
ما كان من كَرَمٍ فأنتم أهلُه ... كَرُمَت مَغارسُكم وطاب المَحْتِد
أَمِنَ السَّويّةِ يابنَ عَمِّ محمدٍ ... خَصْمٌ تُقرِّبه وآخرُ تُبْعِد
إنّ الذين سَعَوْا إليك بباطلٍ ... حُسَّادُ نِعمتِك التى لا تُجحَد
شَهِدوا وغِبْنا عنهمُ فتحكَّموا ... فينا وليس كغائبٍ مَن يَشهد
لو يَجمع الخُصماء عندك مَجلسٌ ... يوماً لبان لك الطريقُ الأَقصد
فبأىّ جُرمٍ أصبحتْ أعراضُنا ... نَهْباً تَقسَّمها اللئيمُ الأَوغد

صلب المتوكل له وشعره فى ذلك

وذُكر أنه لما حُبس علىّ بن الجَهم ما زال أعداؤه يُوغرون صدر المتوكّل عليه، وقالوا للمتوكل: إنه يَهجوك! فتقدَّم بنفْيه إلى خُراسان، وكتب إلى عامله بخُراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحُسين بأن يصلب ابنَ الجهم، إذا وَردها يوماً إلى الليل. فلما وصل علىُّ بن الجَهم إلى الشَّاذياخ[٤] حَبسه بها، ثم أُخرج فصُلب يوماً إلى اللَّيل مُجرَّداً، ثم أُنزل. فقال فى ذلك:

(١) الزاعبية: رماح تنسب إلى رجل من الخزرج، يقال له: زاعب، كان يعمل الأسنة.
(٢) فى غير التجريد: «وجنوة».
(٣) المتورد: الذى يزار ويورد.
(٤) الشاذياخ: من ضواحى نيسابور، كانت قديماً بستاناً لعبد الله بن طاهر بن الحسين، فبنى هو بها، ثم عمرت حتى اتصل بناؤها بنيسابور. (ياقوت).

لم يَنْصِبوا بالشَّاذياخ عَشِيَّةَ الْـ ... إثنين مَسبوقاً ولا مَجهولا
نَصبوا بحمد الله مِلْء قلوبهم ... شَرَفاً ومِلْء صُدورهم تَبْجِيلا
ما أزداد إلا رفعةً بنُكوله ... وأزدادت الأعداء عنه نُكولا
ما كان[1] إلّا اللَّيْثَ فارق غِيلَه ... فرأيتَه فى مَحْمِل مَحمولا
لا يأمن الأعداء من شَدّاته ... شَدًّا يُفصِّل هامَهم تَفْصيلا
ما عابه أن بُزّ عنه لباسُه ... فالسيفُ أَهْوَلُ ما يُرى مَسْلولا
إن يُبتذل فالبدرُ لا يُزْرِى به ... أن كان ليل تَمامه[2] مَبْذولا
أو يَسْلُبوه المالَ يَحزُنْ فقدُه ... ضيفاً ألَمَّ وطارقاً ونَزيلا
أو يَحْبِسُوه فليس يُحْبَسُ سائرٌ ... من شِعره يَدَعُ العزيزَ ذليلا
إنّ المصائب ما تعدَّتْ دينَه ... نِعَمٌ وإن صَعُبت عليه قَليلا

شعره فى طاهر لما أطلقه المتوكل

وذُكر أنّ المُتوكِّل كَتب إلى طاهر بن عبد الله بإطلاق علىّ بن الجَهم ، فلمّا أطلقه قال له ابنُ الجهم :

أطاهرُ إنّى عن خُراسانَ راحلُ ... ومُستَخْبَرٌ عنها فما أنا قائلُ
أأصدُق أم أكنى عن الحق[3] أيُّما ... تخيَّرتَ أدَّتْه إليك المَحافل
وسارت به الرُّكبانُ واصطفقت به ... أكُفُّ قِيانٍ واجتَبَتْه القَبائل
وإنّى بغالى الحمد والذمِّ عالمٌ ... بما فيهما نامى الرميّة[4] ناضِل
وحقًّا أقول الصِّدْق إنى لمائلٌ ... إليك وإن لم يَحْظ بالوُدّ مائل
ألَا حُرمةٌ تُرْعَى ألا عَقْدُ ذِمةٍ ... لجارٍ ألا فِعْلٌ لقَوْلٍ مُشاكل
ألا مُنْصِفٌ إن لم نَجِد مُتفضِّلاً ... علينا ألا قاضٍ من الناس عادِل
فلَا تَقْطعنْ غَيظاً علىّ أناملاً ... فقَبلك ما عُضَّت علىّ الأَنامِل

(١) فى غير التجريد : « هل كان » .
(٢) فى غير التجريد : « ليلة تمه » . (٣) فى غير التجريد : « الصدق » .
(٤) نامى الرمية ، التى تصيبها فتموت بعيدة عنك . وناضل : غالب فى الرمى .

أطاهرُ إن تُحسن فإنّىَ مُحْسنٌ إليك وإن تَبْخل فإنّىَ باخِل

فقال له طاهر : لا تَقُل إلا خيراً ؛ فإنّى لا أفعل بك إلا ما تُحب . ووصله وكساه .

شعره فى قينة

وذُكر أنّ علىّ بن الجَهم كان فى مجلس فيه قَينة ، فعابثها وجَمَّشها . فباعدته وأعرضت عنه ، فقال :

خَفِى[1] اللهَ فيمن قد تَبَلْتِ فؤادَه وغادرْتِه نِضْواً كأنّ به وَقْرَا

دَعِى البُخلَ لا أسمعْ به منك إنما سألتُكِ أمراً ليس يُعرِى لكم ظَهْرا

فقالت له : صدقت يا أبا الحسن ! هذا أمرٌ ليس يُعرِى لنا ظهراً ، ولكنه يملأ لنا بَطْنا .

شعره فى علة المتوكل بعد ما ضرب جاريته قبيحة

وحَكى علىُّ بن الجهم قال :

دخلتُ على المُتوكل ، وقد بلغنى أنه كَلَّم قَبيحةَ جاريته ، فأجابته بشىء أغضبه ، فرَماها بمِخَدَّة فأصابتْ عينَها فأثّرت فيها . فتأوّهت وبكت ، وبكى ابنه المُعتز لبكائها . فخَرج المُتوكل وقد حُمَّ من الغم والغَضب . فلما بصُر بى دعانى ، وإذا الفَتْح[2] يُرِى بَخْتيَشوع القارورة ويُشاوره فيها . فقال لى : قُل فى عِلّتى هذه شيئاً وصِفْ أنّ الطّبيب ليس يَدرى ما بى . فقلتُ :

تنكَّر حال عِلّتَىَ الطبيبُ وقال أرى بجسمك ما يَرِيبُ

جَسَسْتُ العِرْقَ منك فَدل جَسِّى على ألَمٍ له خَبَرٌ عَجيب

فما هذا الذى بكَ هاتِ قُلْ لى فكان جوابَه مِنِّى النَّحيب

وقلتُ : أيا طبيبُ ، الهجرُ دائى وقلبى يا طبيبُ هو الكئيب

فحرَّك رأسَه عَجباً لقولى وقال الحُب ليس له طَبيب

(١) كذا فى التجريد والأغانى . والخطاب للواحدة .

(٢) هو الفتح بن خاقان ، وزير المتوكل .

وأعجبنى الذى قد قال جـــدًّا فقلتُ بلى إذا رَضِى الحبيب
فذاك [١] هو الشِّفـاء فلا تُقصِّر فقلتُ أجل ولـكنْ لا يُجيب
ألاَ هل مُسْعِدٌ يَبكى لشَجْوى فإنِّى هائمٌ فَرْدٌ غَـــريب

فقال : أحسنتَ وحياتى ! يا غُلام أسـقنى قَدَحاً . فجاءه بقَدَحٍ فشرِب، وسُقِيت الجماعةُ مثلَه . وخَرجت إليه فَضْلُ الشاعرةُ بأبياتٍ أمرتْها قَبيحةُ أن تقولها عنها . فقرأها فإذا هى :

لأكتُمنّ الذى فى القلب من [٢] غُصَص حتى أَموت ولم يَعْلَم بىَ النـــاسُ
ولا يقال شَـكا مَن كان يَعْشقه إنّ الشَّـكاة لِمن تَهْوى هى الياس
ولا أبوح بشىء كنتُ أكتُمـه عند الجَليس [٣] إذا ما دارت الكاس

فقال المتوكل : أحسَنتِ يا فَضْلُ ! وأمر لى ولها بعشرين ألفَ دِرهم ، ودَخل إلى قَبيحة فصالحها [٤] .

من شـــعره

ومن رقيق شعر أبن الجهم :

أعلمى يا أحبَّ شىء إلىَّـــا أنّ شوقى إليكِ قاضٍ علىَّـا
إنْ قَضى الله لى رُجوعاً إليكم لا ذكرتُ الفِراق مادمتُ حيّا
إنّ حَرَّ الفِراق أنحلَ جِسمى وكَوى القلبَ منكِ بالشَّوق كيّا

شماتته بالرخجى وشعره فى ذلك

وذُكر أن علىّ بن الجهم كان سأل عُمر بن الفَرج الرُّخَّجى [٥] معاونتـه ، وأسترفده فى نَـكبته ، فلم يُعاونه ولم يَرْفِده . ثم قَبض المُتوكل على عُمر بن الفَرج وأسْلم إلى نَجاح [٦] ليُصادره . فقال علىّ بن الجهم له :

(١) فى غير التجريد : « فقال هو » .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « حرق » مكان « غصص » .
(٣) فى بعض أصول الأغانى : « الجلوس » .
(٤) فى بعض أصول الأغانى : « فترضاها » .
(٥) كان هو وأبوه فرج من أعيان الكتاب أيام المأمون وأيام المتوكل .
(٦) هو نجاح بن سلمة ، كان على ديوان التوقيع أيام المتوكل .

أبْلِغْ نَجاحاً فتى الفِتْيان[1] مَأْلُكةً تَمضى بها الرِّيحُ إصداراً و إيرادَا
لن يخرج المالُ عَفواً من يدَىْ عُمَرٍ أو يُغْمَدَ السيفُ فى فَوْديه إغمادا
الرُّخَّجيُّون لا يُوفون ما وَعدوا والرُّخَّجيّاتُ لا يُخْلِفن مِيعادا

وقال فيه أيضاً :

جمعتَ أمرَيْن ضاع الحزمُ بينهما تِيهَ المُلوك وأفعالَ المَماليكِ
أردتَ شُكراً بلا بِرٍّ[2] ومَرزِئةٍ لقد سلكتَ طريقاً غير مَسْلوك
ظَننْتَ عِرْضَك لا يُرْمَى بقارعةٍ وما أُراكَ على حالٍ بمَتروك

استشفع نديم لسليمان بشعره

وذُكر أنه كان لسُليمان بن وَهب نديمٌ يأنس به ، فعَربد عليه ليلةً من اللَّيالى عربدةً قبيحةً ، فأطَّرحه وجفاه مُدةً . فوقف له على الطريق ، فلما مرَّ به وثب إليه وقال له : أيها الوزير ، ألاَ تكون فى أمرى كما قال علىّ بن الجَهم :

القومُ إخوانُ صِدْقٍ بينهم نَسبَ من المودَّة لم يُعْدَلْ به نَسبُ
تراضعُوا دِرَّةَ الصَّهباء بينهمُ فأوجبوا لِرَضيع الكأس ما يَجِب
لا تَحفظنّ على السَّكران زَلَّتَه ولا تَريبك من أخلاقه رِيَب

فقال له سليمان : قد رضيتُ عنك رضًى صحيحاً ، فعُد إلى ما كنتَ عليه من مُلازمتى .

وأول هذه الأبيات :

الوَردُ يَضحك والأوتارُ تَصطخبُ والنَّايُ يَندُب أشجاناً و يَنْتَحِبُ
والرَّاحُ تُعْرَض فى نَوْر[3] الربيع كما تُجْلَى العَرُوس عليها الدُّرُّ والذَّهب
وكلّما أُنسكبت فى الكأس آونةً أقسمتُ أنّ شُعاع الشَّمس يَنْسكب

(١) مألكة : رسالة . (٢) المرزئة ، من رزأه ماله : إذا أصاب منه خيراً .
(٣) فى التجريد : « ثوب » .

وذُكر أن علىّ بن الجهم دخل على عبد الله بن طاهر بن الحسين يوماً فى غُدوة من غُدوات الربيع، وفى المساء غَيم رقيق، والمطرُ يجىء قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله بن طاهر عَزم على الصَّبوح، فغاضبته حَظيَّةٌ له، فتنغّص عليه عَزْمُه وفَتر. وخُبِّر علىّ بن الجهم بالخبر، وقيل له: قُل فى هذا المعنى شيئاً لعلّه يُنشّط الأمير للصَّبوح. فأنشده:

أَمَا تَرى اليومَ ما أحلَى شمائلَه ... صَحوٌ وغَيْمٌ وإبراق وإرعادُ
كأنّه أنتَ يا مَن لا شبيه لَه ... وَصْلٌ وهَجْرٌ وتَقريبٌ وإبعاد
فباكِرِ الرَّاح واشرَبْها مُعتَّقةً ... لم يَدَّخر مِثْلَها كِسْرَى ولا عاد
واشرَبْ على الرَّوض إذ لاحت زَخارفُه ... زَهرٌ ونَوْرٌ وأوراق وأَوْراد
كأنّما يومُنا فِعلُ الحَبيب بنا ... بَذْلٌ وبُخل وإيعادٌ وميعاد
وليس يَذهب عنّى كلُّ فعلكمُ ... رُشدٌ وغَىٌّ وإصلاحٌ وإفساد

فاستحسن الأبياتَ، وأمر له بثلثمائة دينار. وحمله وخَلع عليه، وأمر بأن يُغنّى فى الأبيات.

شعره فى سبب جلوسه على المقابر

وحكى رجلٌ من أهل خُراسان قال:

رأيت علىّ بن الجهم، بعد أن أُطلق من محبسه، جالساً على المَقابر، فقلت له: ما يُجلسك ها هنا؟ فقال:

يَشتاق كُلُّ غريبٍ عند غُربته ... ويذكر الأهلَ والجيرانَ والوَطنَا
وليس لى وطنٌ أمسيتُ أذكره ... إلّا المقابر إذ كانت لهم[1] سَكنا

شعره فى هجاء ابن الرشيد لبخله

وذُكر أن علىّ بن الجهم مَدح أبا أحمد بن الرشيد! فلم يُعطه شيئاً فقال يهجوه:

(١) فى غير التجريد: «إذ صارت لهم وطناً».

يا أبا أحمـــدَ لا يُنـ ـجِي من الشَّعر الفِرارُ
لبَنى العبّاس أحـلا مٌ عِظـــامٌ ووَقار
ولهم فى الحرب إقـدا مٌ ورأىٌ وأصـطبار
ولهم ألســـنةٌ تَبـ ـرِى كما تَبرى الشفار
ووجـوهٌ كنُجوم الْـ ـلَيل تَهدِى من يَحَار
ونَسِيمٌ كنَسيم الرّ وض جادتْه القِطـار
ولعِطْفيك عن المَجـ ـدِ شِمـاسٌ وأزْورار
إن تـكن منهم بلا شـــكٍّ فللعُود [1] قُتَار

رثاؤه عبد الله ابن طاهر

وحكى عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر قال :

دَخل إلينا علىُّ بن الجَهم بعقِب موت أبى ، والمجلسُ حافلٌ بالمعزِّين ، فمثَل قائماً وأنشد يَرثيه :

أىُّ رُكْنٍ وَهَى من الإسلامِ أىُّ يومٍ أُخْنَى على الأيّامِ
جَلّ رُزْء الأمير عن كُلِّ رُزْءٍ أدركتْه خواطرُ الأوهـام
سَلَبتنا الأيّام ظِلاًّ ظَليلاً وأباحتْ حِمًى عزيزَ المَرام
يا بَنى مُصْعبٍ حَلَلْتم من النا سِ مَحلَّ الأرواح فى الأجسام
وإذا رابكم من الدَّهر رَيْبٌ عَمَّ ما خَصَّكم جميعَ الأنام
انظُروا هل ترَوْنَ إلا دُموعاً شاهداتٍ على قُلوبٍ دوامِى
من يُداوِى الدُّنيا ومن يكلأ المُلْـ ـكَ لدى فادِح الخُطوب العِظام
نحن مِتْنا بموته وأجلُّ الـ ـخَطْب موتُ السادات والأعلام
لم يَمُت والأميرُ طاهرُ حَىٌّ دائمُ الإنتقـام والإنعام
وهو من بعده نظامُ المَعالى وقِوامُ الدُّنيا وسيفُ الإمام

(١) القتار : ريح العود المحرق .

قال : فما أذكر أنّى بكيتُ أو رأيتُ فى دُورنا باكياً أكثر من يومئذ .

غناء عريب للمعتز بشعره

وحكى أبو الدِّهقانة النديم قال :

دخلنا يوماً على المُعتز، وهو مُصطبح على صوت اختاره واقترحه على عَريب، وأظُن الصنعة لها، فلم يَزل يشرب عليه بقيةَ يومه، وأمر لها بثلاثين ألف دِرهم، وفرّق على الجُلساء كُلِّهم الجوائز والطِّيب والخِلع . والصوتُ هو :

العينُ بعدك لم تنظر إلى حَسَنٍ ... والنَّفسُ بعدك لم تسكُن إلى سَكَنِ
كأنّ رُوحى[1] إذا ما غبتَ غائبةٌ ... حتى إذا عُدتَ لى عادت إلى بَدَنى

والشعرُ لعلىّ بن الجَهم .

شعره إلى المتوكل من الحبس

وذُكر أنّ علىّ بن الجهم كتب إلى المُتوكل، وهو محبوس :

أَقِلنِي أقالَكَ مَن لم يَزَلْ ... يَقِيك ويَصْرِفُ عنك الرَّدَى
ويَغْذُوك بالنِّعم السابغات ... وليداً وذا مَيْعةٍ أَمْردا
وتَجرى مقاديرُه بالذى ... تُريد[2] إلى أن بلغتَ المَدى
ويُعْليك حتى لو أنّ السماء ... تُنال لجاوزتَها مُصْعِدا
فما بين ربِّك جلّ اسمُه ... وبينك إلّا نبىّ الهُدى
فشكراً لأنْعُمه إنه ... إذا شُكرت أَنْعُمٌ[3] جَدَّدا
وعفوَك عن مُذْنبٍ خاضعٍ ... قَرَنْتَ المُقِيمَ به المُقْعِدا
إذا أدَّرع الليلَ أفضَى به ... إلى الصُّبح من قبلِ أن يَرْقُدا
عفا الله عنك الا حُرمةٌ ... تَعُوذ بفضلك أن أبْعَدا
لئن جَلَّ ذنبٌ ولم أعتمد ... لأنت أَجَلُّ وأعلَى يَدا

(١) فى غير التجريد : « نفسى » .
(٢) فى غير التجريد : « تحب » .
(٣) فى غير التجريد : « نعمة » .

ألم ترَ عبداً عـــدَا طَوْرَه ومولًى عفا ورشيداً هَدى
ومُفْسِدَ أمْرٍ تلافيتَـــه فعـــاد فأصلح ما أفسدا
فـلا عُدْتُ أعصيك فيما أمر تَ حتى أَزور الثَّرى مُلْحَدا
وإلّا فخالفتُ ربَّ السماء وخُنتُ الصديقَ وعِبْتُ (١) النَّدى
وكنتُ كعَزُّونَ أو كابْن عمرٍو مُبيحِ العِيال لمن أولدا
يُـكثِّر فى البيت صِبيـانَه يَغيظ بهم مَعشراً حُسَّدا

شـعره فى الشماتة بابن أبى دواد

وكان علىّ بن الجهم قد استشفع بالقاضى أحمد بن أبى دُواد إلى المتوكل واستعان به ، فلم يُعِنه ولم يشفع له . فلما أُطلق علىّ بن الجهم ، وأصاب ابنَ أبى دُواد الفالجُ شَمِت به وأظهر ذلك له ، وقال فيه :

لم يَبْقَ منك سوى خيالك لامعاً فوق الفِراش مُوسَّداً (٢) بوسادِ
فَرحتْ بمَصرعك البريةُ كلُّها مَنْ كان منهم مُوقِناً بمَعَاد
كم مجلسٍ لله قـــد عطَّلتـه كى لا يُحـدِّث فيـه بالإسْنـاد
ولَكم مصابيحٍ فمـــا أطفأتَها حتى يزول من الطَّريق الهادى
ولكم كريمةِ مَعشرٍ أرملتَهـــا ومُحدِّثٍ أوثقتَ فى الأقياد
إنّ الأسارى فى السُّجون تفرَّجوا لَمَا أتتْك مواكبُ العُوَّاد
وغَدا لمصرعك الطبيبُ فلم يجد شيئاً لدائك حيلةَ المُرْتاد
فذُقِ العذابَ مُعجَّلاً ومؤجَّلا واللهُ ربُّ العَرش بالمِرْصـاد

مـا يغنى فيه من شـعره

ومما يُغنّى فيه من شِعره :

نَطق الهوى بجوىً هو الحقُّ وملـكَتنى فَلْيَهْنِكَ الرِّقُّ
رِفْقـاً بقَلبى يا مُعـذِّ به رفقاً وليس لظالِم رِفْق

(١) فى غير التجريد : « وعفت » . (٢) فى غير التجريد : « ممهدا » .

وإذا رأيتُك لا تُكلِّمنى ضاقتْ علىّ الأرضُ والأُفق

المنجم بينه وبين المتوكل بقصيدة مدحه بها

وحكى محمد بن عبد السلام قال :

رأيتُ مع علىّ بن يحيى المُنجِّم قصيدةَ علىّ بن الجهم ، يَمدح المُتوكّل ويَصف الهارونىّ[1] . فقال له المُتوكل : يا أبا الحسن، ماهذه القصيدة معك؟ فضَحك وقال: قصيدةٌ لعلىّ بن الجهم سألنى عَرْضَها على أميرالمؤمنين، فعرضتُها . فلما سَمع قولَه :

وقُبّة مُلْكٍ كأنّ النّجو مَ تُفضى[2] إليها بأسرارِهَا
تَخِرُّ الوفودُ لها سُجَّداً إذا ما تَجلَّت لأَبصارها
وفوّارة ثأرُهـا فى السماء فليست تُقَصِّر عن ثارها
تَرُدّ على المُزن ما أنزلت على الأرض من صَوْب مِدْرارها

فاستحسنها . فلما انتهيتُ إلى قوله :

تبوّأتُ بعدك قَعر السُّجون وقد كنتُ أرثى لزُوّارها

غضب وتربّد وجهه ، وقال : هذا بما كسبت يداه ! ولم يَسمع تمام القصيدة .

حيلته فى إيصال قصيدة له إلى المتوكل من الحبس

وحكى عبدُ الله بن المعتز قال :

لما حَبس أميرُ المؤمنين المتوكلُ علىّ بن الجهم ، واجتمع الجلساء على عداوته وإبلاغ الخليفة عنه كُلّ مكروه ووَصْفهم مساويه ، قال القصيدةَ التى يَمدحه فيها ويذكر حُقوقه عليه ، وهى :

عفا الله عنك ألاَ حُرمةٌ تَعوذ بفَضلك[3] أن أُبْعَدَا

وقد تقدّم ذكرُها . ووجّه بها مع بيدون الخادم . فدخل بها إلى قَبيحةَ ، وقال لها : إنّ علىّ بن الجهم قد لاذ بك ، وليس له ناصرٌ سواك ، وقد قصده هؤلاء .

(١) الهارونى : قصر قرب سامراء ، ينسب إلى هارون الواثق بالله .
(٢) فى بعض أصول الأغانى : « تصغى » . (٣) فى غير التجريد : « بعفوك » .

النُّدماء والكتّاب ، لأنه رجل من أهل السُّنة وهم روافضُ، فقد اُجتمعوا على الإغراء بقتله . فدَعت المعتز وقالت له : اُذهب بهذه الرُّقعة يا بُنَىّ إلى سيِّدك وأَوْصلها إليه . فجاء بها ووقف بين يدَى أبيه . فقال له : ما هذا معك ؟ فديتُك ! فدنا منه وقال : هذه رُقعة دفعتْها إلىّ أُمى . فقرأها المُتوكل وضَحك ، ثم أقبل عليهم وقال لهم : قد أصبح أبو عبد الله — فديتُه — خصمَكم ! هذه رُقعة علىّ ابن الجَهم يَستقيل [1] ، وأبو عبد الله شفيعُه ، وهو لا يُرد . وقرأها عليهم . فلما بلغ إلى قوله :

وإلا فخالفتُ ربَّ السماء وخُنتُ الصديقَ وعِبتُ النَّدى [2]
وكنت كعَزُّونَ أو كابن عمرو مُبيحِ العيالِ لمن أَوْلدا

وثب ابنُ حمدون وقال : يا سيدى، مَن دفع هذه الرُّقعة إلى السيدة ؟ فقال . بيدون الخادم : أنا . فقالوا له : أحسنتَ ! تُعادينا وتوصل رقعة عدوّنا فى هجائنا ! فانصرف بَيدون ، وقام المُعتز فانصرف . وجعل ابن حمدون يُنشد قولَه :

وكنتُ كعَزُّون أو كابن عمرو مُبيح العيال لمن أَولدا

وهم يشتُمون ابن حمدون ويَضحكون ، والمتوكل يَضحك ويُصفِّق ويَشرب ، حتى سكر ونام . وسَرقوا قصيدَته من بين يدى المتوكل وانصرفوا ، ولم يُوقِّع الخليفةُ بإطلاقه ونَسِيه . فقالوا لابن حمدون : ويلك ! تُعيد هجاءنا وتَشْتمنا ! فقال : يا حَمْقى ، والله لو لم أفعل ذلك فيضحك ويشربَ حتى يَسكر وينام لوقَّع بإطلاقه ، ولوقَعْنا معه فى كُلّ ما نكره .

مقتله

وذُكر أنه لما شاع فى الناس مذهبُ علىّ بن الجهم وشَرُّه وذِكْرُه كُلَّ أحدٍ بسوء من صديقه وعدوه ، تحاماه الناس ، فخرج عن بغداد إلى الشام فى قافلة يَقصِد

(١) يستقيل : يطلب الإقالة من ذنبه والعفو عنه . (٢) فى غير التجريد : « وعفت »

حلب . فخرج عليه نفرٌ من الأعراب . فتسرَّع إليهم قومٌ من المُقاتلة[١] . وخرج فيهم علىٌّ بن الجهم. فقاتل قتالاً شديدا وهَزم الأعراب . فلما كان من الغد خَرج على القافلة خلقٌ كثير منهم . فتسرّعت إليهم المقاتلة[١] ، وخرج فيهم ، فأصابته طعنةٌ قتلتْه . فحكى الحُسين بن موسى قال : جئنا إليه فاحتملناه وهو يَنْزف دمُه ، فلما رآنى بَكا وجعل يُوصينى بما يُريد . فقلت له : ليس عليك بأس . فلما أمسينا قَلِق قلقاً شديدا وأحسّ بالموت ، فجعل يقول :

أَزِيدَ فى الليل ليلُ ... أم سال بالصُّبح سَيْلُ
ذكرتُ أهل دُجيل ... وأين منِّى دُجَيْلُ

فأَبكى كُلَّ من كان فى القافلة ، ومات فى السَّحَر ،ودُفن فى ذلك المنزل على يوم من حلب.

آخر شعر له

وذُكر أن آخر شعر قاله :

يا رحمةً للغريب بالبلد النـ ... ـازح ماذا بنَفسه صَنعَا
فارق أحبابَه فما انتفعوا ... بالعَيش من بعده وما انتفعا

شعره الذى فيه الغناء

والشعر الذى فيه الغناء ، وافتتح به الفرج أخبار علىّ بن الجهم ، هو :

هى النَّفس ما حمّلتها تتحمّل ... وللدَّهر أوقاتٌ[٢] تجور وتَعْدِلُ
وعاقبةُ الصَّبر الجميل جميلةٌ ... وأفضلُ أخلاق الرجال[٣] التفضُّل

(١) فى التجريد : « القافلة » .
(٢) فى غير التجريد : « أيام » .
(٣) فى غير التجريد : « التجمل » مكان « التفضل » .

أخبار أبي دلامة

اسمه وولاؤه

وأسمه زَنْد بن الجَون . ومن الناس مَن يُصحِّف ويقول : زيد ، بالياء . وإنما هو بالنون . وهو أسود . وكان مولًى لبنى أسد ، كان أبوه عبداً لرجل منهم يقال له : فضافض [1] ، فأعتقه . وسُمى أبا دُلامة ، بجَبَلٍ بمكة بأعلاها ، فسُمى بذلك ، كانت قُريش تتَّخِذ فيه بناتِهم .

بين الأمويين هو والعباسيين

وأدرك آخرَ أيام بنى أُمية ، ولم يكن له نَباهة فى أيّامهم ، ونبغ فى أيام بنى العباس فانقطع إلى أبى العبّاس السفّاح ، وأبى جعفر المنصور ، والمهدىّ ، وكانوا يُقدِّمونه ويُفضِّلونه ويَستطيبون مُجالسته ونوادره . وكان انقطع إلى رَوْح بن حاتم أيضاً فى بعض أيّامه . ولم يَصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبى دُلامة من المَنصور خاصة .

فساد دينه

وكان فاسدَ الدِّين ردىء المَذهب ، مُرتكباً للمَحارم مُضيِّعاً للفُروض ، مُجاهراً بذلك . فكان يُعلَم هذا منه ويُعرف به فيُتجافَى عنه للُطْف محلِّه .

أول شعره

وكان أولُ ما حُفظ من شعره ، وأُسنيت الجائزة له به ، قصيدةً مَدح بها أبا جعفر المنصور ، وذكر قَتْلَه أبا مُسلم صاحبَ الدَّعوة ، يقول فيها :

أبا مُسلم خَوَّفْتنى القتلَ فانتحَى ... عليك بما خَوَّفتنى الأسدُ الوَرْدُ

أبا مُسلم ما غيَّر اللهُ نعمةً ... على عبده حتى يُغيِّرها العبد

قيل : إنه أنشدها المنصورَ فى مَحْفل من الناس . فقال : أحتكم ، فاحتكم [2]

---

(١) فى التجريد : « قصاقص » .

(٢) فى بعض أصول الأغانى : « قال » مكان « فاحتكم » .

عشرة آلاف درهم . فأمر له بها . فلما خلا به قال له : أما والله لو تعدّيتَها لقتلتُك.

هو والمنصور فى لبس السواد

وذُكر أن المَنصور كان أمر أصحابَه بلُبْس السواد وقلانسَ طِوال تُدْعم بعيدانٍ من داخلها ، وأن يُعلِّقوا السُّيوفَ بالمناطق ، ويكتبوا على ظُهورهم (فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وهو السَّميع العليم) . فدخل عليه أبو دُلامة فى ذلك الزّى . فقال له المنصور : ما حالُك ؟ قال : شَرُّ حالٍ ، وجهى فى نِصفى وسيفى فى أُستى ، وقد صبغتُ بالسواد ثِيابى ، ونبذتُ كتابَ الله وراء ظَهرى . فضحك المنصور ، وأعفاه وحدَه من ذلك الزىّ ، وقال له : إيّاك أن يَسمع هذا منك أحد ! وقال أبو دلامة فى ذلك :

(١) وكُنّا نُرجِّى منحةً من إمامنا ... فجاءت بطُولٍ زاده فى القَلانسِ

تَراها على هامِ الرِّجال كأنها ... دِنَانُ يَهودٍ جُلِّلت بالبَرانس

هو والسفاح وقد سأله أشياء

وذكر أنّ أبا دُلامة وقف بين يدَى السَّفّاح، فقال له السَّفاح: سَلْنى حاجتَك. قال : كَلْب صَيد . قال : أعطوه إياه . قال : ودابّة أتصيّد عليها . قال : أعطوه . قال : وغُلام يقود الكَلب ويَصيد به . قال : أعطوه غُلاماً . قال : وجارية تُصلح لنا الصيدَ وتُطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عِيال ولا بُدّ لهم من دار يَسْكنونها قال : أعطوه داراً تجمعهم قال: إن لم تكن لهم ضَيعة فمن أين يَعيشون ؟ قال : قد أقطعتك مائةَ جريب (٢) عامرة ومائةَ جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نباتَ فيه . قال : قد أقطعتُك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فَيافى بنى أَسد . فضحك وقال :

---

(١) الرواية فى غير التجريد :

وكنا نرجى من إمام زيادة ... فجاد بطول زاده فى القلانس

(٢) الجريب : نحو من ثلاثة آلاف ذراع وستمائة .

أجعلوا المائتين عَامرة [١]. قال : فأذَنْ لى أن أُقبِّل يدك . قال : أمّا هذه فدَعْها، فإنى لا أفعل . قال والله ما منعتَ عِيالى شيئًا أقلّ عليهم ضرراً منها .

حديث شهادته لجارة له على أتان

وذُكر أن أبا دُلامة شَهد عند القاضى ابن أبى لَيلى [٢] لجارةٍ له على أتانٍ نازعها فيها رجلٌ . فلما فَرغ من الشهادة قال لابن أبى ليلى : اسمع قولى أولاً ثم اقض بما شئتَ . قال : هات . فأنشده :

إنِ الناسُ غَطَّونى تغطَّيتُ عنهمُ وإنْ بحثُوا عنِّى ففيهم مَباحثُ
وإن حَفروا بئرى حفرتُ بئارهم ليُعلم يوماً كيف تلك[٣] النَّبائث

فأقبل القاضى على المرأة فقال : أتبيعينى الأتان ؟ قالت : نعم . قال : بكم ؟ قالت : بمائة درهم . قال: أدفعوها اليها . ففعلوا . فأقبل على الرجل فقال : قد وهبتُها لك . وقال لأبى دلامة . قد أمضيتُ شهادتَك ولم أبحث عنك، وابتعتُ ممّن شهدتَ له ، ووهبتُ مِلكى لمن رأيتُ، أفرضيتَ ؟ قال : نعم . وانصرف .

هو والسيد الحميرى فى قبح ابنته ثم مع المنصور

وذُكر أنه اجتمع أبو دُلامة والسّيد الحِمْيرى، إذ خرجتْ بنتٌ لأبى دُلامة ، فقال فيها أبو دُلامة :

فما ولدتْكِ مريمُ أمّ عيسى ولا ربّاكِ لُقْمانُ الحَكيمُ

وقال : أجِز يا أبا هاشم . فقال السيد :

ولكن قد تَضمّكِ أمُّ سَوْءٍ إلى لَبّاتها وأبٌ لَئيمُ

فضَحِك مَن حضر لذلك . ثم غدا أبو دلامة إلى المَنصور فأخبره بقصّته مع ابنته وأنشده البيتين ، ثم اندفع فأنشده بعدهما :

(١) الرواية فى غير التجريد : « اجعلوها كلها عامرة » .

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، ولى القضاء على الكوفة ليوسف بن عمر ، ثم وليه بعد ذلك لبنى العباس .

(٣) النبائث : ما يستخرج من تراب البئر . يريد بها : خفايا الناس وعيوبهم .

لو كان يَقْعد فوق الشمس من كرمٍ ... قومٌ لقيل أُقعدوا يا آل عَبّاسِ
ثم ارتقوا فى شُعاع الشمس كُلُّكمُ ... إلى السماء فأنتم أكرمُ (١) الناس
وقدِّموا القائمَ المنصور رأسَكمُ ... فالعينُ والأنفُ والأُذْنان فى الرّاس

فاستحسنها وقال له : بأىّ شىء تحبُّ أن أُعينَك على قُبْح ابنتِك ؟ فأخرج خريطةً قد كان خاطها من الليل ، وقال : تملأ لى هذه دراهمَ . فمُلِئت ، فوَسِعت أربعةَ آلاف درهم .

شعره المنصور يعزيه فى السفاح وما كان بينه وبينه

وذُكر أنّه لما تُوفى أبو العبّاس السفّاح ، دَخل أبو دُلامة على المنصور ، والناسُ عنده يُعزونه ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

أمسيتَ بالأنبار يا ابنَ مُحمد ... لم تستطع عن عُقْرها تحْويلاَ
وَيْلى عليك ووَيْل أهلى كُلِّهم ... ويلاً وعَوْلاً فى الحياة طَويلا
فَلتبكينّ لك النساء بعَبرة ... ولتَبْكينّ لك الرجالُ عَويلا
مات النَّدى إذ مُتَّ يا ابن محمد ... فجعلتَه لك فى التُّراب (٢) عَديلا
إنّى سألتُ الناس بعدك كُلَّهم ... فوجدتُ أسمحَ مَن وجدتُ (٣) بَخيلا
أَلشِقْوتى أُخِّرتُ بعدك للّتى ... تَدع العزيزَ من الرِّجال ذَليلا
فلأحلفنّ يَمينَ حَقّ بَرَّةً ... بالله ما أُعطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناسَ قولُه . وغَضب المنصور غضباً شديداً ، وقال : لئن سمعتُك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانَك . قال : يا أمير المؤمنين ، إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مُكرِماً ، وهو الذى جاء بى من البدو كما جاء الله تعالى بإخوة يوسف إليه ، فقُل كما قال يوسفُ : (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) . فسُرِّى عن المنصور ، وقال : قد أقلناك يا أبا دُلامة ، فسَل

(١) فى غير التجريد : « أظهر » .
(٢) فى غير التجريد : « فى الثراء » .
(٣) فى غير التجريد : « سألت » .

حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مَريض ، ولم أَقْبضهما . فقال المنصور : ومَن يعلم ذلك ؟ قال : هؤلاء ، وأشار إلى جَماعة ممّن حَضر . فقام سليمانُ بن مُجالد وأبو الجهم ، فقالا : صدق أبو دُلامة ، فنحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبى أيوب الخازن ، وهو مَغيظ : يا سليمان ، أُدفعها إليه وسَيِّره إلى هذا الطاغية — يعنى عَمَّه عبدَ الله بن علىّ بن عبد الله بن العباس ، وكان قد خَرج عليه بالشام وأظهر الخلاف — فوثب أبو دُلامة وقال : يا أمير المؤمنين ، أُعيذك بالله أن أخرُج معهم ، فوالله إنى مَشئوم . فقال المنصور له : أمضِ فإنْ يُمْنى يَغلب شُؤمك ، فأخرج . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أُحب لك أن تُجرِّب ذلك منِّى على مثل هذا العَسكر ، فإنِّى لا أَدرى أيُّهما يَغْلب : أشؤمى أم يُمنك ؟ إلّا أنّى بنفسى أوثقُ وأعرفُ وأطولُ تجربة . فقال : دَعْنى مِن هذا ، فما لك من الخُروج بُدّ . قال : فإنى أَصْدُقك الآن . شَهِدتُ والله تسعةَ عشر عسكراً ، كُلُّها هُزمت وكنتُ سببَها ، فإنْ شئتَ الآن على بصيرة أن يكون عسكرُك العِشْرين فأفعل . فاستغرب أبو جعفر ضَحِكاً ، وأمر بأن يتخلَّف مع عيسى بن موسى بالكُوفة .

وحَكى أبو دلامة قال :

ما كان منه مع روح فى حرب الشراة

أُتى بى المنصور — أو المهدىّ — وأنا سكران ، فحَلف ليُخرجنِّى فى بَعْثِ حربٍ . فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المُهلَّبى لقِتال الشُّراة[1] . فلما ٱلتقى الجَمْعان قلت لِرَوْح : أما والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سلاحَك لأثَّرتُ اليومَ فى عدوّك أثراً ترتضيه . فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ ذلك إليك ولآخذنَّك بالوفاء بشَرطك . ونزل ، ونزع عن فرسه ، ونَزع سلاحَه ودفعهما إلىّ ، ودَعا بغيرهما وٱستبدل

(١) الشراة : الخوارج .

بهما . فلما حَصل ذلك فى يدى وزالت عنّى حلاوةُ الطمع ، قلت له : أيها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلتُ بيتين فاسمعهما . قال : هات . فأنشدتُه :

إنّى أستجرتُك أن أُقدَّم فى الوغَى ... لِتَطاعُنٍ وتَنـــازُلٍ وضِرابِ
فهَبِ السُّيوفَ رأيتهـا مشهورةً ... فتركتُها وذهبتُ[1] فى الهرّاب
ماذا تقول لِمـا يَجىء وما يُرَى ... من بادرات[2] الموت فى النَّشّاب

فقال : دع عنك هذا وستَعلم . وبَرز رجلٌ من الخوارج يَدعو إلى المُبارزة . فقال : والله لتخرُجَنّ . فقلتُ : أيها الأمير ، إنه أول يوم من الآخرة وآخرُ يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما تَنْبعث[3] لى جارحة من الجوع ، فمُر لى بشىء آكله ثم أخرُج . فأمر لى برَغيفين ودَجاجة . فأخذت ذلك وبرزتُ عن الصفّ . فلما رآنى الشارىّ أقبل نحوى ، وعليه فَرْوٌ قد أبتلّ ، وأصابته الشمسُ فاقفعلّ[4] ، وعيناه تَقِدان ، فأسرع إلىّ . فقلتُ له : على رِسْلك يا هذا ، أتقتُل مَن لا يُقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أفتستحلّ أن تقتُل رجلاً على دينـك ؟ قال : لا . قلت : أفتستحلّ ذلك قبل أن تدعو من تُقاتله إلى دينك ؟ قال : لا . فاذهب عنّى إلى لعنة الله ! قلت : لا أفعل أو تسمع منى . قال : قل . قلت : هل كان بيننا قطُّ عداوة أو تِرةٌ ، أو تَعرفنى بحال تُحفظك علىّ ، أو تَعلم بين أهلى وبين أهلك وِتراً ؟ قال : لا والله . فقلت له : ولا أنا لك والله إلا على جَميل ، وإنّى لأهواك ، وأنتحل مَذْهبك ، وأدين بدينك ، وأريد السُّوء لمن أرادك . فقال : يا هذا ، جَزاك الله خيراً ، فانصرفْ . فقلت : إنّ معى زاداً أُريد أن آكلَه معك وأُريد مُؤاكلتك لتتأكّد المودةُ بيننا . قال : فافعل . فتقدّمت إليه حتى اختلفتْ أعناقُ دوابّنا وجَمعنا أرجلَنا على مَعارفها ، وجعلنا نأكل ، والناسُ قد غُلبوا ضَحكاً . فلما استوفينا ودّعنى . ثم قلت له :

(١) فى غير التجريد : « ومضيت » .
(٢) رواية غير التجريد : « واردات » .
(٣) فى غير التجريد : « ما شبعت » .
(٤) اقفعل : تقبض .

إنّ هـذا الجاهلَ إن أقمتَ على طلب المُبارزة نَدِبنى لك ، فتتعب وتُتعبنى ، فإن رأيتَ ألّا تَبْرُز اليومَ فافعل . قال : قد فعلتُ . ثم انصرف وانصرفتُ . فقلتُ لرَوح : أما أنا فقد كفيتُك قِرْنى ، فقُل لغيرى يَكْفيك قِرْنه كما كفيتُك . فأمسك . وخَرج آخرُ يدعو إلى البراز . فقال لى : أُخرج إليه . فقلت :

إنّى أعوذ برَوْح أن يُقرِّبنى[1] إلى القِتال فتَخْزَى بى بنو أَسَدِ
إنّ البِرازَ إلى الأقران أعلمُه مما يفرِّق بين الرُّوح والجَسد
إنّ المُهلَّب حُبَّ الموت أورثكم وما وَرِثتُ اختيار الموت عن أحد
لو أنّ لى مُهجةً أُخرى لجُدت بها لكنّها خُلقت فرداً فلم أَجُد

فضحك وأعفانى .

هو وموسى بن داود لقد أراده على الحج

وذُكر أنه عَزم موسى بن داود بن علىّ بن عبد الله بن العبّاس على الحجّ ، فقال لأبى دُلامة : حُجّ معى ولك عشرة آلاف درهم . فقال : هاتها . فدُفعت إليه . فأخذها وهَرب إلى السَّواد ، فجعل يُنفقها هناك ويَشرب بها الخَمر . وطَلبه موسى فلم يَقدر عليه . وحان وقتُ الحج ، فخَرج موسى ، فلما شارف القادسيَّة إذا هو بأبى دُلامة خارجاً من قَرية إلى أُخرى وهو سكرانُ . فأَمر بتَقييده وأَخْذه وطَرْحه فى المَحْمِل . ففُعل ذلك به . فلما سار غيرَ بعيدٍ أقبل على موسى فناداه :

يأيها الناسُ قُولوا أجمعون معاً صلّى الإلٰه على مُوسى بن دَاوُدِ
كأنّ ديباجَتَى خدَّيه مِن ذهبٍ إذا بدا لك فى أثوابه السُّود
إنى أعُوذ بداودٍ وأعظُمه مِن أن أُكلَّف حَجًّا يابن داود
خُبِّرت أن طريق الحج مَعْطشةٌ لقاصديه وما شُربى[2] بتَصْريد

(١) فى غير التجريد : « يقدمنى » .

(٢) التصريد : الشرب دون الرى . والرواية فى غير التجريد : « من الشراب » مكان « لقاصديه » .

واللهِ ما بِيَ[1] من أجرٍ فتطلُبَـه ولا الثنـــاء على دِينى بمَحمود

فقال موسى : أَلْقُوه ـ لَعنه الله ـ عن المَحْمل ودَعُوه ينصرف . فأُلقى وعاد إلى حاله بالسواد حتى نَفِدت العشرةُ الآلاف .

هو والمنصور وقد أراده على صلاة الجماعة

وذُكر أنَّ أبا جعفر المَنصور كان يحب العَبث بأبى دُلامة ، وكان يسأل عنه فيوجد فى بُيوت الخمّارين وهو سكران لا فضلَ فيه ، فعاتبه على انقطاعه عنه ، فقال : إنما أفعل ذلك خوفاً أن تَملَّنى . فعلم أنه يُحاجزه[2] ، فأَمر الربيعَ أن يُوكِّل به من يُحْضِره الصلواتِ الخَمْسَ معه فى جماعةٍ فى الدار . فلما طال ذلك عليه قال :

ألم تَرَيَا أنّ الخليفةَ لَزَّنى بمَسجده والقَصرِ مالى وللقَصْرِ
وقد صَدَّنى عن مجلس[3] أستلذّه أُعلَّل فيـــه بالسَّماع وبالخمر
يُكلِّفنى الأُولى جميعاً وعصرَها فويلى من الأُولى وويلى من[4] العَصْر
وقد كان فى قَومى مساجدُ جَمَّةٌ ولم يَنْشرح يوماً لغِشيانها صدرى
وواللهِ ما لى نِيَّة[5] فى صلاتكم ولا البِرُّ والإحسانُ والخيرُ من أَمرى
وما ضَرَّه واللهُ يغفر ذنبَـه لو أنّ ذُنوبَ العالمين على ظَهرى

فبلغت المنصورَ الأبياتُ ، فضحك وقال : صـدق ! ما يضُرنى والله ذلك ، ولا يُفلح هذا أبداً ، دعُوه يفعل ما يشاء .

حبسه المنصور لسكره فاستعفاه بشعر له

وقيل :

وقع العَسَسُ يوماً بأبى دُلامة وهو سكرانُ فحرقوا ثيـــابَه وساجَه وأتَوا به المنصور ، فأَمر بحبسه يوماً مع الدَّجاج . فلمّا أفاق من سُكره جعل يُنادى غلامَه

(١) فى بعض أصول الأغانى : « ما فى » .
(٢) يحاجزه ، أى يتخلص منه وينتحل المعاذير الباطلة لانقطاعه عنه .
(٣) فى غير التجريد : « مسجد » . (٤) فى غير التجريد : « وعولى » .
(٥) فى غير التجريد : « فى صلاته » مكان « فى صلاتكم » .

مرةً وجاريته أخرى ، فلا يجيبه أحدٌ ، وهو مع ذلك يسمع صوت الدَّجاج وصِياح الدُّيوك . فلما أكثر قال له السّجان : ما شأنك ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : أنت فى الحَبس ، وأنا فلان السّجان . قال : ومن حَبسنى ؟ قال : أميرُ المؤمنين . قال : ومَن خَرق طَيْلسانى ؟ قال : العَسس . فطلب له من يأتيه بدواة وقِرطاس ، ففَعل . فكتب إلى المَنصور :

أميرَ المُؤمنين فدَتْك نفسى ... عَلَام حبستَنى وخَرقْتَ ساجِى
أمِن صَهباء[1] صافيةِ المِزاج ... كأنّ شُعاعها لَهَبُ السِّراج
وقد طُبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من النُّطَفِ النِّضاج
تَهشُّ لها النُّفوس[2] وتَشتهيها ... إذا بَرزتْ تَرقرقُ فى الزُّجاج
أُقاد إلى السُّجون بغير جُرم ... كأنِّى بعضُ عُمَّال الخَراج
ولو معهم حُبست لكان سهلاً ... ولكنِّى حُبست مع الدَّجاج
وقد كانت تُخبِّرنى ذُنوبى ... بأنِّى من عِقابك غيرُ ناجى
على أنِّى وإن لاقيتُ شَرًّا ... لخَيْرِك بعد ذاك الشرِّ راجى

فدعا به فقال : أين حُبست يا أبا دلامة ؟ قال : مع الدَّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : كنت أُقوِّقِ معهنّ حتى أصبحتُ . فضَحك وخَلّى سبيلَه ، وأمر له بجائزة . فلما خرج قال له الربيع : إنه قد شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أمَا سمعتَ قوله : « وقد طبخت بنار الله » ـ يعنى : الشمس ـ فقال أبو دُلامة : لا والله ، ما أردتُ إلّا نار الله المُوقدة التى تَطّلع على فؤاد الرَّبيع . فضَحك المنصور وقال : خُذها يا ربيع ولا تُعاود التعرُّض له .

خداعه المهدى بموت زوجته وخداع زوجته الخيزران بموته

وذُكر أنّ أبا دُلامة دَخل على المهدىّ وهو يبكى ، فقال : مالك ؟ فقال : ماتت أم دُلامة . وأنشده لنفسه فيها :

(١) فى غير التجريد : « أمن صفراء » . (٢) فى غير التجريد : « القلوب » .

وكُنا كزَوْجٍ من قَطًا فى مَفــازةٍ لدى خَفْضِ عيشٍ ناضرٍ[1] مُونِقِ رَغْدِ
فأفردنى رَيْبُ الزَّمانِ بصَرْفه ولم أرَ شيئاً قطُّ أوحشَ من فَرد

فأمر له بثياب وطيبٍ ودنانير ، فخرج . ودخلت أم دلامة على الخَيزران وأعلمتها أنّ أبا دُلامة قد مات . فأعطتها مثلَ ذلك وخرجت . فلما ٱلتقى المهدىُّ والخَيزران عَرفا حِيلَتهما ، فجعلا يضحكان لذلك و يَعْجبان .

مداعبته عافية القاضى

وذُكر أنّ أبا دُلامة خاصم رجلاً فى داره ، فأرتفعا إلى عافيةَ القاضى ، فأنشأ أبو دُلامة يقول :

لقــد خاصمتنى دُهاةُ الرِّجالِ وخاصمتُها سَنةً وافيــــهْ
فما أَدْحض اللهُ لى حُجَّــةً ولا خَيَّب اللهُ لى قافيــــه
ومَن خِفْتُ من جَوْرِه فى القضاء فلستُ أخافُك يا عافيــــه

فقال له عافية : أمَا والله لأشكونّك إلى أمير المؤمنين ولأُعلمنّه أنك هجوتَنى . فقال : إذنْ والله يَعْزِلَك . قال : ولِمَ ؟ قال لأنّك لا تَعرف المَديح من الهجــاء . فبلغ ذلك المنصورَ ، فضحك وأمر لأبى دُلامة بجائزة .

طلب إليه المهدى أن يهجو فهجا نفسه

وذُكر أنّ أبا دُلامة دخل على المهــدىّ ، وعنده جماعة من أهل بيته من بنى هاشم ، فقال له : أنا أُعطى الله عهــداً لئن لم تَهْجُ لى واحداً ممّن فى البيت لأقطعن لسانك . فنَظر إليه القوم ، وكلما نَظر إلى واحد منهم غَمزه بأنّ عليــه رضاه . قال أبو دُلامة : فعلمتُ أنى قد وقعتُ ، وأنهــا عَزمةٌ من عَزماته لا بُدَّ منها ؛ فلم أرَ واحداً أحقَّ بالهجــاء منِّى ، ولا أدعى إلى الســلامة من هِجاء نفسى . فقلت :

ألَا أبلغ لديك أبا دُلامــهْ فلستَ[2] من الكِرام ولا كرامَهْ

(١) فى غير التجريد : « ناعم » . (٢) فى غير التجريد : « فليس » .

إذا لَبِس العمامةَ قلت قِرْدًا وخِنْزيرًا إذا وَضع[1] العِمامه
جمعتَ دَمامةً وجمعت لُؤماً كذاك اللُّؤم تَتبعه الدَّمامه
فإنْ تَكُ قد أصبتَ نَعيم دُنيا فلا تَفْرَح فقد دَنَت القِيامه

فضحك القومُ ، ولم يَبق منهم أحدٌ إلّا أجازه .

شعره فى المهدى وابن سليمان وقد خرجا للصيد

وذُكر أنّ المهدىّ خَرج إلى الصيد ، ومعه علىّ بن سليمان بن علىّ بن عبد الله ابن العباس ، فسَنح لهما قَطيع من ظباء ، فأُرسلت الكلاب وأُجريت الخيل ، فرَمى المهدىُّ سهماً فصَرع ظبياً ، ورمى علىّ بن سليمان سهماً فأصاب بعضَ الكلاب . فقال أبو دُلامة :

قد رَمى المهدىُّ ظَبياً شَكَّ بالسَّهم فُؤادَهْ
وعلىُّ بن سُليما ن رَمى كلباً فصَاده
فهنيئاً لكما كُـ ـلُّ أمرئٍ يأكُل زاده

فضحك المهدىُّ حتى كاد يسقُط عن سَرجه ، وقال : صَدق والله أبو دُلامة ! وأمر له بجائزة سَنيّة .

شعره المنصور وقد أراد هدم بيته

وذُكر أن المَنصور كان قد أَطلق لأبى دُلامة داراً تُجاور قصرَه ، ثم احتاج إلى زيادة فى القَصر وهَدْم تلك الدار ، فَدخل عليه أبو دُلامة وأَنشده :

يا بنَ عَمِّ النبىّ دعوة شَيخٍ قد دنا هَدْمُ دارِه ودَمارُهْ
فهو كالماخض التى أعتادها الطَّلْـ ـق فقَرَّت وما يَقِرُّ قَرارُه
إن[2] تَحُزْ عُسْرَهُ بكفَّيْك يوماً فبكَفَّيْك عُسْرُه ويسارُه
أو تَدَعْه فللبَوارِ وأنّى ولماذا وأنت حَيٌّ بَواره

(١) فى غير التجريد : « إذا لبس العمامة كان قرداً * وخنزيراً إذا نزع » .
(٢) فى التجريد : « إن تحن عسرة » .

هل يخاف الهلاكَ شاعرُ قومٍ قَدُمتْ فى مَديحهم أشعاره
لكُم الأرضُ كلُّها فأَعيروا شيخَكم ما احتوى عليه جِداره
فكأَنْ قد مَضى وخلَّف فيكم ما أَعرتُم وأَقفرتْ منه داره

فاستعبر المنصورُ ، وأمر بتعويضه داراً خيراً منها ووصله .

مداعبته المنصور فى جنازة بنت عمه

وذُكر أنه توفِّيت حَمّادة بنت عيسى بن علىّ ، وحَضر المنصور جنازتها . فلما وقف على حُفْرتها قال لأبى دُلامة : ما أعددتَ لهذه الحُفرة ؟ فقال : بنتَ عَمِّك يا أميرَ المُؤمنين حمّادة بنت عيسى يُجاء بها الساعةَ فتُدْفَن فيها . فضَحِك المنصور حتى غُلب وستر وجهه .

سؤاله الخيزران جارية وحديث ذلك

وذُكر أن الخَيْزُران حجّت ، فلمّا خرجتْ صاح أبو دُلامة : جَعلنى الله فِداك ! الله الله فى أمرى ! فقالت : مَن ؟ قالوا : أبو دُلامة . قالت : سَلُوه ما أَمرُه . فقالوا : ما أمرُك ؟ فقال : أَدْنُونى من مَحْمِلها . قالت : أَدْنُوه . فدنا ، فقال لها : أيتها السيدة ، إنى شيخٌ كبير وأجرُك فىّ عظيم . قالت : فمَهْ . قال : تَهَبين لى جاريةً من جواريك تُؤنسنى وترفُق بى وتُريحنى من عجوز عِندى ، قد أكلتْ رِفْدى[1] ، وأطالت كدِّى ، فقد عاف جِلْدى جلدَها ، وتمنَّيتُ بُعْدَها ، وتشوَّقت فَقْدَها . فضحكت الخيزرانُ وقالت : سوف آمرُ لك بما سألتَ . فلما رجعت تلقَّاها وأَذْكرها ، وخرج معها إلى بغداد ، فأقام حتى غَرِض[2] ، ثم دَخل على أُمّ عَبيدة ، حاضنةِ الهادى والرَّشيد ، فدَفع إليها رُقعةً قد كَتبها إلى الخَيْزُران ، فيها :

أَبْلِغى سيِّدتى بالله يا أُمَّ عَبيدهْ
أنها أَرْشدها اللهُ وإن كانت رَشيده

(١) فى التجريد : « زندى » . (٢) غرض : ضجر ومل .

وَعَدتْنى قبل أن تخـ ـرج للحجِّ وَليده
فتأنَّيتُ وأرسلـ ـت بعشرين قَصيده
كلما أخلقْنَ أخلفـ ـتُ لها أُخرى جَديده
ليس فى بَيتى لتمهيـ ـد فِراشى مِن قَعيده
غيرُ عَجْفاء عجوزٍ ساقُها مثلُ القَديده
وجهُها أقبحُ من حُو تِ طَرِيٍّ فى عَصيده
ما حياةٌ مع أُنثى مثلِ عِرْسى بسَعيده

فلما قُرئت عليها الأبيات ضحكت . ثم أستعادت قولَه :

وجهها أقبح من حُو ت طَرِيٍّ فى عَصيده

فجعلت تَضحك . ثم دعت بجارية من جواريها فائقةٍ ، فقالت لها : خُذى كُلَّ مالك فى قصرى . ففعلت . ودعت ببعض الخَدم وقالت له : سَلِّمها إلى أبى دُلامة . فأنطلق الخادم بها ، فلم يُصادفه فى منزله ، فقال لأمرأته ، إذا رَجع فأدفعيها له وقولى له : تقول لك السيدةُ : أحسنْ صُحبة هذه الجارية فقد آثرتُك بها . فلما خَرج دخل أبنها دُلامة ، فوجد أُمه تَبكى ، فسألها عن خَبرها فأخبرته ، وقالت : إن أردتَ أن تَبرَّنى يوماً من الدَّهر فاليوم . فقال : قولى ما شئتِ فإنّى أفعله . فقالت : تدخل وتُعلمها أنّك مالكها وتطؤها وتُحرِّمها عليه ، وإلا ذهبتْ بعَقله وجفانى وجفاك . ففَعل ، ودَخل إلى الجارية فوَطئها ووافقها ذلك منه . وخرج ودخل أبو دلامة ، فقال لأمرأته : أين الجارية ؟ فقالت : فى ذلك البيت . فدخل إليها شيخٌ محطَّم ذاهبٌ ، فمدَّ يده إليها وذهب ليقبِّلها . فقالت له : مالك ! ويحك! تنحّ وإلا لطمتُك لطمةً دقّتْ بها أنفك . فقال : أبهذا أوصتْك السيدة ؟ فقالت : إنها بعثتْنى إلى فتًى من حاله وهيئته كَيت وكيت ، وقد كان عندى آنفاً ونال منّى حاجتَه . فعَلِم أنه قد دُهِى مِن أُم دُلامة وأبنها . فخرج إليه أبو دُلامة

فلطمه وتلبّب به[1] وحلف ألّا يفارقه إلا عند المهدىّ . فمضى به مُلبّباً حتى وقف على باب المهدىّ . فعرّف خبرَه وأنه قد جاء بابنه على تلك الحال . فأمر بإدخاله . فلما دخل قال له : مالك ؟ ويلك ! قال : عَمِل بى هذا ابنُ الخَبيثة ما لم يَعمله ولدٌ بأبيه ، ولا يُرضينى إلّا أن تقتله . فقال : ويلك ! مافعل ؟ فأخبره الخبر . فضحك حتى أستلقى ، ثم جلس . فقال له أبو دلامة : أعجبك فعلُه فتضحَك منه ؟ فقال المهدىّ : علىّ بالسّيف والنِّطع . فقال دُلامة : قد سمعتَ قولَه يا أمير المؤمنين فأسمع منّى . قال : هات . قال : هذا الشّيخ أصفقُ الناس وجهاً ، هو ينالُ من[2] أمى منذ أربعين سنة ما غضبتُ ، ونلتُ[2] أنا من جاريته مرة واحدة فغَضِب وصنع بى ما ترى . فضحك المهدىُّ أشد من ضحكه الأول ، ثم قال : دَعها له يا أبا دلامة وأنا أُعطيك خيراً منها . قال : على أن تخبأها لى بين السماء والأرض ، وإلّا نال منها واللهِ كما نال من هذه . فتقدَّم إلى دُلامة ألّا يُعاود مثلَ فعله ، وحلف أنه إن عاود قتله . ووهب له جاريةً أُخرى كما وَعد .

أنشد المهدى يستوهبه بغلة

وذُكر أنّ أبا دُلامة أنشد المهدىَّ قصيدتَه المشهورة فى بَغلته التى يُضرب بها المثل ، يَهجوها ويذكر مَعايبها . فلما أنشده قولَه :

أتانى خائبٌ[3] يستام منّى ... عَريقٌ فى الخَسارة والضّلالِ
فقال تَبيعها قلت أرتبطْها ... بحُكمك إن بَيْعى غير غالى
فأقبل ضاحكاً نحوى سُروراً ... وقال أراك سهلاً[4] ذا جَمال
هُلُمّ إلىّ يَخلو بى خداعاً ... وما يَدْرى الشقىُّ بمن يُخَالى
فقلتُ بأربعين فقال أحْسنْ ... إلىّ فإن مثلَك[5] ذو سِجال

(١) تلبب به ، أى أخذ بتلابيبه .
(٢) فى الأصل كلمة أصرح من هذه .
(٣) فى غير التجريد : « أتانى بغلة » .
(٤) فى غير التجريد : « سمحا » .
(٥) ذو سجال ، أى ذو مماكسة فى الثمن .

فأترُكَ خمسةً منهـا لعلمى بما فيه يَصير من الخَبال

فقال المهـدىّ : لقد أفلتَّ من بَلاء عظيم . فقال : والله يا أميرَ المُؤمنين لقد مكثتُ شهراً أتوقّع صاحبَها أن يَرُدّها . ثم أنشد :

فأَبْدِلْنى بها يا ربِّ[1] طِرْفاً يكونُ جَمالُ مَرْكبـه جَمالى

فقال المهـدىُّ لصاحب دوابّه : خَيِّره مركوبَين[2] من الأُصـطبل . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كان الأختيار إلىّ وقعتُ فى شرٍّ من البغلة ، ولـكن مُره أن يختار لى . فقال له : أُخترْ له .

هوالمهدى فى بخل العبـاس

وذُكر أنّ أبا دُلامة دخل على المهدىّ لحادثه ساعةً وهو يَضحك ، فقال له : هل بَـقِى من أهلى أحدٌ لم يَصِلْكَ ؟ قال : إنْ أمَّنتنى أخبرتُك ، و إن أعفيتَنى فهو أحبُّ إلىّ . فقـال : بل تُخبرنى وأنت آمن . فقال : كُلهم قد وَصلنى إلا حاتِمَ بنى العبّاس . قال : ومن هو ؟ قال : عَمُّك العبّاس بن مُحمد . فالتفت المهدىّ إلى خادم واقف على رأسه وقال : جأ[3] عُنُق العاضِّ بَظْر أُمه . فلما دنا منه صاح به أبو دُلامة : تَنحَّ يا عبدَ السَّوْء لا تُحْنِث مولاك وتَنْـكُثْ عَهْده وأمانه ! فضحك المهدىُّ وأمر بالخادم فتَنَحَّى عنه . ثم قال لأبى دُلامة : ويلك ! عَمِّى أبخلُ الناس . فقال أبو دلامة : بل هو أسخى الناس . فقـال له المهدىّ : والله لو متَّ ما أعطاك شيئاً . قال : فإنْ أتيتُه فأجازنى ؟ فقال : لك بكُل درهم تأخذه منه ثلاثةُ دراهم . فانصرف أبو دلامة فحبَّر للعبّاس بن محمد قصيدةً ، ثم غدا بها عليه فأنشده :

قِفْ بالدِّيار وأىَّ الدهرِ لم تَقِفِ على المنـازل بين الظَّهر[4] والنَّجَفِ
وما وقوفُك فى أطـلالِ منزلةٍ لولا الذى أستدرجتْ من قَلبِك الكَلِف

(١) الطرف : الكريم من الخيل . (٢) فى غير التجريد : « مركبين » .
(٣) الوجء : اللكز . (٤) الظهر والنجف : موضعان بالكوفة . وبالقرب من ثانيهما قبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

إنْ كنتَ أصبحْتَ مشغوفاً بساكنها ... فلا وربِّك لا تَشْفيك من شَغَف
دَعْ ذا وقُلْ للذى قد فاز من مُضَرٍ ... بالمَكْرُمات وعِزٍّ غيرِ[1] مُقْتَرَف
هذى رسالةُ شيخٍ من بنى أسد ... يُهدى السلامَ إلى العبّاس فى الصُّحُف
تَخُطها من جَوارى المِصْر كاتبةٌ ... قد طالما ضَرَبتْ فى اللّام والألف
حتى إذا نَهَد الثَّديان وامتلآ ... منها وخِيفَتْ على الإسْراف فى[2] القَرَف
صِينتْ ثلاثَ سنينٍ ما تَرى أحداً ... كما تصون بِحارٌ[3] دُرَّةَ الصَّدف
فبينما الشيخُ يَهْوِى نحو[4] مَسجده ... مُبادراً لصلاة الصُّبح[5] بالسَّدَف
حانت له لَمحةٌ منها فأبصرها ... مُطِلَّةً بين سَجْفَيْها من الغُرَف
فخرَّ والله ما يَدْرى غداتئذٍ ... أخرَّ مُنكشِفاً أو غير مُنكشف
وجاءه النّاسُ أفواجاً بمائهمُ ... ليَغسلوا الرجل المغشِىَّ[6] بالنُّطف
ووَسْوسوا بقُرانٍ فى مَسامعه ... مَخافةَ الجنّ والإنسانُ لم يَخَف
شيئاً ولكنّه من حُب جاريةٍ ... أمسى وأصبح[7] من موتٍ على شَرف
قالوا لك الويلُ ما أبصرتَ قلتُ لهم ... [8]جِنِّيةً أقصدتْنى من بنى خَلَف
أبصرت جاريةً مملوكةً لهمُ ... تطلَّعت من أعالى القَصر ذى الشُّرف
فقلتُ أيُّكمُ والله يأجرُه ... يُعين قُوَّته فيها على ضَعَف
فقام شيخٌ بَهِىٌّ من رجالهمُ ... قد طالما خَدع الأقوامَ بالحَلِف
فابتاعها لى بألفَىْ دِرْهمٍ وأنى ... بها إلىَّ وألقاها على كَتِفى
فبِتُّ أَلْثمها طوراً وأَلْزَمُها ... طوراً وأصنع بعضَ الشَّىء فى اللُّحف

(١) مقترف : مكتسب . (٢) القرف : التهمة . (٣) فى غير التجريد : «يصون تجار».
(٤) فى غير التجريد : « مجلسه » مكان « مسجده » . (٥) السدف : « الظلمة » .
(٦) النطف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى ، قل أوكثر .
(٧) فى غير التجريد : « موقوفاً على التلف » مكان « من موت على شرف » .
(٨) سقط هذا العجز فى غير التجريد ، كما سقط صدر البيت التالى ، وجاء البيتان بيتاً واحداً .

فبين ذاك كذا إذ جاء صاحبها ... يَبغى الدَّراهم بالمِيزان ذى الكِفَف
وذِكْرَ حَقٍّ على زَنْدٍ وصاحبه ... والحقُّ فى طَرَفٍ والطِّينُ فى طَرَف
وبَين ذاك شُهودٌ لا يَضُرُّهم ... أكنتُ معترفاً أو غيرَ مُعترف
فإن يكن منك شىء فهو حقُّهمُ ... أو لا فإنَّىَ مَدفوعٌ إلى التَّلف

فضَحِك العباسُ وقال : ويحك ! أصادق أنت ؟ قال : نعم والله . فقال : يا غلام ، أدفع إليه ألفى درهم . فأخذها ، ودَخل على المهدىّ فأخبره بالقصّة ، وما احتال له به . فأمر له المهدىُّ بستة آلاف درهم .

هو وأبو مسلم فى رجل دعاه للمبارزة

وذَكر أنّ أبا دُلامة كان مع أبى مُسلم صاحب الدعوة فى بعض حُروبه لبنى أُمية ، فدعا رجلٌ إلى المُبارزة . فقال له أبو مُسلم : أبرُز إليه . فقال أبو دلامة :

أَلَا لا تَلُمْنى إنْ فررتُ فإننى ... أخاف على فُخَّارتى أن تَحَطَّمَا
فلو أنَّنى فى السُّوق أبتاع مِثْلَها ... وجدِّك ما باليتُ أن أتقدَّما

فضحك وأعفاه .

شعره الذى فيه الغناء

والشعر الذى فيه الغناء ، وافتتح به أبو الفرج أخبار أبى دُلامة ، هو قولُه :

« إنِ الناسُ غَطَّونى » .

البيتين اللذين تقدَّم ذكرهما[1] .

(١) انظر (ص١٢١٠) من هذا الكتاب .